
محمد الغريب موسى
أطلانطس
ديلمون
بومبى
الإنكا
كوارث كونية
الدار المصرية اللبنانية

حضارات مفقودة

الطبعة الأولى

١٤١٠هـ — ١٩٩٠م

الطبعة الثانية

١٤١٢هـ — ١٩٩٢م

الدار المصرية اللبنانية

طباعة • نشر • توزيع

١٦ شارع عبد الخالق ثروت - تليفون ٣٩٢٣٥٢٥ - ٣٩٣٦٧٤٣ - فاكس: ٣٩٠٩٦١٨ - برقياً: دار شادو - ص.ب: ٢٠٢٢ - القاهرة

AL-DAR AL-MASRIAH AL-LUBNANIAH

PRINTING — PUBLISHING — DISTRIBUTION

16 ABD EL KHALEK SARWAT St. P.O.Box 2022-Cairo-Egypt PHONE: 3936743-3923525 FAX: 3909618 CABLE DARSHADO

محمد العزب موسى

حضارات مفقودة

- أطلانطس
- ديلمون
- بومبي
- الإنكا
- كوارث كونية

الناشر
الدار المصرية اللبنانية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا * وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا
* وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا * يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا *
بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا * يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا
لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ * فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا
يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ *

صدق الله العظيم .

تقـــديم

بقلم : مختــار السويفــى

فى منتصف الأربعينات افتتحت دار الكتب المصرية مكتبة فرعية فى منطقة السكاكينى. وكنا شلة من أصدقاء التلمذة بالمدارس الثانوية، هدانا الله منذ الصغر إلى حب المطالعة، وأصبحت هذه المكتبة ملاذاً لنا ليس فى أوقات الأجازات الصيفية فحسب، بل وفى أثناء السنوات الدراسية أيضاً. وهكذا أصبح التلاقى بيننا يتم داخل قاعات تلك المكتبة، وأصبح موظفو المكتبة أصدقاء لنا، يشجعوننا على الإطلاع ويرشحون لنا أحسن ما لديهم من الكتب التى تناسب أعمارنا، وعرفونا بالاسم فرداً فرداً، وسهلوا لنا سبل الاستعارة لنقرأ الكتب فى بيوتنا، على أن نردها خلال المواعيد والمدد الرسمية المقررة للإعارة.

وقد اختارت هذه الشلة من أصدقاء التلمذة محمد العزب موسى زعيماً لها، وذلك لسبب جوهرى ولعدة أسباب أخرى غير جوهرية.. فقد كان له قريب يعمل موظفاً فى الحكومة اعتمدنا عليه كلنا فى التصديق على استمارات الاستعارة بواسطة اثنين من الموظفين الحكوميين وختم هذه الاستمارات بالختم الحكومى الرسمى ذى «التاج». أما الأسباب الأخرى، فلأنه كان أسرعنا فى القراءة وأكثرنا استيعاباً لما يقرأ.

وكان انصراف أغلبنا إلى قراءة أمهات الكتب الأدبية لأشهر أساتذتنا ومعلمينا الذين كانوا يتربعون على عروش الثقافة والأدب فى ذلك العصر، من أمثال طه حسين والعقاد والمازنى وأحمد أمين وزكى مبارك وتوفيق الحكيم ومحمود تيمور ومصطفى صادق الرافعى ومصطفى لطفى المنفلوطى وميخائيل نعيمه وعادل

زعيتر وجبران خليل جبران وأحمد شوقى وحافظ ابراهيم وغيرهم كثيرين ممن كان لهم فضل تقديم أرفع مستويات الأدب والثقافة العربية والأجنبية للمثقفين المصريين والمثقفين العرب.

ولكن محمد العزب موسى تميز بيننا بانطلاقه إلى الاطلاع على كتب التاريخ، ويبدو كما لو كان يأكلها أكلاً بعد أن يقرأها ويكاد يحفظها عن ظهر قلب، فما أن كان يلتقى بواحد منا حتى يشبعه تلقينا بآخر ما قرأه من كتب، وبأغرب مافى هذه الكتب من معلومات. وحتى حين التحقنا بكلية الحقوق لدراسة القانون والاقتصاد، وهى دراسة تتميز عن الدراسة بالكليات النظرية الأخرى بكثرة الكتب والمراجع وضخامتها وكبر حجمها، كان يجد الوقت الكافى للانطلاق إلى كتب أخرى غريبة لا تدخل فى «المقرر» علينا، وإنما تختص بموضوع أصبح أثيراً لديه ومفضلاً.. وهو موضوع تاريخ القانون..!

فما أن كان يبدأ بيننا حوار فى أى فرع من فروع القانون الذى ندرسه، والذى سيكون موضوع امتحان لنا فى آخر العام، حتى نجد محمد العزب موسى يحيد بهذا الموضوع ويدخلنا إلى القانون المدنى أو القانون الجنائى عند قدماء المصريين أو قوانين حورابى ببابل القديمة أو قوانين صولون ببلاد الإغريق إلى آخر تلك الحقبات التاريخية التى عاصرها القانون فى مختلف مراحل التطور الحضارى للجماعات الإنسانية القديمة. وبالرغم من أن مثل هذه الموضوعات الشيقة كانت خارجة عن دراستنا ولا تفيدنا بشىء فى امتحانات آخر العام، إلا أننا كنا لا نستطيع أن نقاوم اغراءها.. وكنا نضيع الساعات الطوال فى الانصات إلى ذلك السيل من المعلومات التى كانت تلهب خيالنا وتجعلنا نعيش فى تلك العصور والأفكار التى كان يصفها لنا محمد العزب موسى بكل تمكن واقتدار.. وننتقل بين الحضارات القديمة فى مصر وبلاد الشرق الأدنى والشرق الأقصى.. ونتعرف إلى جانب المعلومات التاريخية على معلومات أخرى عن العقائد والديانات والفلسفات القديمة كالبوذية والكونفوشية والزرادشتية وغيرها من مبتكرات الفكر الإنسانى فى مختلف مناطق العالم.

وما أن انتهى محمد العزب موسى من دراسة القانون والتحق بمهنة الكتابة الصحافية حتى انطلق إلى التوسع فى ممارسة هوايته المفضلة فى قراءة التاريخ

والحضارة، ثم بدأ فى تدبيج قراءاته واطلاعاته فى كتب قيمة تتميز بحسن اختيار الموضوع وسهولة تناوله، إلى جانب عنصرى الطرافة والجدة اللتين يحرص عليهما بقصد واع ليجعل كتبه فى متناول القارىء العام ولينشر الثقافة التاريخية والحضارية فى أوسع رقعة ممكنة .. ولعل من أشهر كتبه فى هذا المجال الخصيب: وحدة تاريخ مصر.. وأول ثورة على الأقطاع.. وهزيمة الهكسوس.. وموسى مصرياً.. وأسرار الهرم الأكبر.. وهى الكتب التى تتناول التاريخ والحضارة المصرية القديمة.. إلى جانب كتب أخرى تتناول التاريخ والحضارة خارج الحدود المصرية ككتاب «الحشاشون والفرق الشيعية» وحصاد الفكر.. بالإضافة إلى عشرات الدراسات الأخرى التى نشرها فى شكل بحوث ومقالات عن الحضارات الهندية والصينية والفارسية وحضارات الهنود الحمر بأمريكا الوسطى وأمريكا الجنوبية.

وأذكر أنى زرت المتحف البريطانى بلندن عدة مرات لولعى الشديد بتحف الآثار المصرية المعروضة بالقسم المصرى فى هذا المتحف، وهو القسم الذى يحظى بالأغلبية العظمى من الرواد والزائرين فى كل يوم.. وأذكر أنى دخلت «القسم الآشورى» بهذا المتحف فى أول زيارة، وكان مروراً سريعاً لمجرد المشاهدة العابرة وقد لفت نظرى وجود تمثالين ضخمين من حجر البازلت الأسود يمثل كل منهما حيواناً شرساً له جناحان مطويان ورأس آدمى كبير.. ولفتت نظرى أكثر وأكثر تلك الجهامة التى تتبدى فى تلك التماثيل الآشورية، وذلك الاحساس بالرعب الذى يبثه كل تمثال فى نفس مشاهده. بعكس الإحساس بمتعة تذوق الجمال الفنى الذى ينبعث فى نفوس مشاهدى التماثيل المصرية.

وما أن عدت إلى القاهرة ونقلت إحساسى هذا إلى الصديق محمد العزب موسى، حتى فوجئت بأنه أخذ يحدثنى عن هذين التمثالين بتمكن واقتدار كما لو كان هو أمين القسم الآشورى بالمتحف البريطانى.. حدثنى عن سير هنرى لايارد الذى بدأ الحفائر الأثرية فى بلاد ما بين النهرين فى النصف الأول من القرن الماضى، والذى أشرف على نقل هذين التمثالين الضخمين إلى لندن ضمن عشرات من القطع الأثرية الأخرى التى كشفت عنها حفائره بتلك البلاد.. وحدثنى عن الحضارات العريقة التى عاشها السومريون والبابليون والآشوريون فى

تلك البلاد، وعن مدن بابل وتل نمرود ونينوى التى شيدتها الحضارات التى تعاقبت على تلك البلاد واحدة وراء الأخرى.

ومن الحقائق المعروفة لدى غالبية المثقفين فى العالم، أن المائة وخمسين سنة الأخيرة، شهدت مولد الكثير من العلوم التى تخصصت فى دراسة الإنسان وآثاره التى تركها منذ نشأة الحياة الإنسانية على وجه الأرض. كما أدت النهضة العلمية التى شهدها العالم فى العصر الحديث، إلى تطور وسائل البحث العلمى بحيث أصبح فى امكان الباحثين الآن أن يتحققوا من أن النتائج التى تسفر عنها هذه البحوث هى أقرب ما تكون إلى الدقة واليقين.

وقد حظى علم «الأركيولوچى» [علم الآثار] وعلم الانثروبولوچى [علم الإنسان] باهتمام الكثير من العلماء والباحثين المتخصصين الذين أسهموا فى زيادة المعارف الإنسانية عن الجنس البشرى الذى عمر الأرض منذ ملايين السنين.. والذى عاش خلال حقب التاريخ الچيولوچى فى العصر الحجرى القديم والعصر الحجرى الحديث وعصر النحاس وعصر البرونز وعصر الحديد حتى العصر النووى الحديث.

وقد تركت الجماعات الإنسانية آثارها فى كل مكان عاشت فيه على وجه الأرض. وبطبيعة الحال فقد كانت هذه الآثار تختلف باختلاف الحضارات التى صنعتها تلك الجماعات، بحيث أصبحت لكل حضارة مميزاتها وخصائصها الذاتية.

ومن فضل الله على الإنسان أن خلقه ميالاً بطبعه وغريزته إلى حب الاستطلاع.. وتواقاً إلى معرفة أسرار الماضى وخبايا المستقبل. لذلك فإن البحوث العلمية الحديثة التى تعمقت فى معرفة أسرار الماضى ومعالم تلك الحضارات القديمة التى تركتها كآثار مدفونة فى باطن الأرض، تعتبر ثورة طائلة من كنوز المعرفة، تسهم إلى حد كبير فى اشباع رغبة المتطلعين إلى الثقافة العامة بكافة مستوياتها.

وقد لوحظ أن جميع الاذاعات والصحف ووسائل الإعلام الأخرى فى جميع أنحاء العالم قد اهتمت اهتماماً بالغاً بتغطية أخبار اكتشاف مقبرة توت عنخ آمون فى سنة ١٩٢٢، لدرجة أن أخبار هذا الملك الصغير الذى توفى منذ أكثر من ٣٣٠٠ عام قد غطت وطغت على أخبار جميع الرؤساء والملوك الأحياء الذين كانوا

يعيشون فى عشرينات هذا القرن فى جميع أنحاء العالم. كما حدث نفس الاهتمام أيضاً ــ وإن كان بدرجة أقل ــ حين تم العثور على مركب خوفو بجنوب الهرم الأكبر سنة ١٩٥٤.

وربما كانت الآثار التى تخلفت عن الحضارة المصرية القديمة سواء ما كان منها ظاهراً معروفاً أو ما كُشفَ عنه النقاب أو ما أسفرت عنه حفائر الأثريين منذ العقود الأولى للقرن التاسع عشر وحتى الآن، من أهم الأسباب التى جعلت آثار الإنسان التى تخلفت عن الحضارات القديمة الأخرى، أمراً يهتم به الإنسان الحديث فى أى مكان فى عالم اليوم.. وجعلت من الاكتشافات الأثرية التى تحدث بين حين وآخر فى أى مكان فى هذا العالم أخباراً طيبة يتلقاها الناس بشغف شديد يشدهم شداً إلى معرفة المزيد عن هذا التراث الإنسانى الذى أصبح يعتبر كما لو كان ملكاً للعالم كله.

ولهذا فلم يكن غريباً أن يهتم العالم، وإن كان بدرجات متفاوتة بأخبار الاكتشافات الأثرية فى جبل تايشان بالصين، حيث ظهرت آثار لجماعات إنسانية كانت تعيش فى العصرين الحجريين القديم والحديث، وآثار أخرى أحدث عهداً، يرجع تاريخها إلى عصر دولة «كى» ودولة «لو» وهما دولتان كانتا تتنافسان فى تلك المنطقة فيما بين القرن الثامن والقرن الخامس قبل الميلاد.. وكذلك الاهتمام بالاكتشافات الأثرية فى مدينة سيجيريا بسرى لانكا [سيلان] التى بناها الملك كاسابا الأول فى القرن الخامس الميلادى.. والاكتشافات الأثرية بمدينة البتراء بالأردن التى كانت عاصمة لمملكة النبطيين فى القرن الرابع قبل الميلاد وحتى القرن الثانى الميلادى، والتى كانت تعتبر فى زمانها مدينة تجارية من الطراز الأول نظراً لوقوعها على ملتقى طريقين من الطرق التجارية الهامة فى العالم القديم، وأصبحت سوقاً لبخور جنوب الجزيرة العربية وتوابل الهند وحرير الصين وذهب مصر وعاج النوبة.

وإذا انتقلنا من قارة آسيا إلى افريقيا، نلاحظ على الفور هذا الاهتمام المتزايد الذى يظهر بكل وضوح فى البحوث والدراسات التى نشرت بأوربا وأمريكا عن تاريخ افريقيا والافريقيين، والتى أكدت ــ بفضل الشواهد الأثرية التى اكتشفت أو عثر عليها ــ أن افريقيا لم تكن قارة بلا تاريخ، وأن الجماعات

الإنسانية التى عاشت فى ربوع تلك القارة قد صنعت حضارات مميزة لا أول لها ولا آخر. بل واثبتت أحدث وسائل البحث العلمى أن افريقيا هى المهد الأول الذى ظهر فيه الإنسان، وذلك بعد أن اكتشف العالم الانثروبولوچى ريتشارد ليكى سنة ١٩٥٩ فى منطقة الشواطىء الرملية للجانب الشرقى من بحيرة رودلف بكينيا، هيكلاً عظمياً متحجراً لإنسان أثبت الفحص العلمى أنه كان يعيش منذ ٢,٦٠٠,٠٠٠ سنة وهو ما سمى علمياً باسم Homo Erectos أى الإنسان الواقف على قدميه. وهو أقدم هيكل إنسانى عثر عليه فى أية قارة من قارات العالم. وقد أدى هذا الكشف إلى إعادة النظر فى نظرية داروين بأكملها.

ومن المسلمات المتفق عليها فى علوم التاريخ والآثار والحضارة أن افريقيا فى جانبها الشمالى الشرقى شهدت مولد أرقى وأعظم حضارات العالم القديم، وهى الحضارة المصرية القديمة التى نشأت فى ربوع وادى النيل الأدنى والتى يعتبرها الكثير من علماء العالم واساتذته وفلاسفته أم الحضارات كلها. ولعلنا فى حل من الاشارة إلى المئات والآلاف من الآثار والمواقع الأثرية التى تحظى باهتمام الإنسان الحديث فى جميع أنحاء العالم. ولكننا مع ذلك نود أن نشير فقط إلى أن التربة المصرية مازالت تخفى الكثير الكثير من الكنوز الأثرية التى مازالت تتكشف عنها الأيام يوماً وراء يوم، بفضل جهود العشرات من البعثات العلمية التى توفدها الجامعات والاكاديميات الشهيرة من مختلف انحاء العالم، والتى تجرى حفائرها الأثرية فى مختلف المواقع المصرية بالإضافة إلى الحفائر التى تجريها هيئة الآثار المصرية والكليات المتخصصة بالجامعات المصرية.

وإلى جانب تلك الحضارة العريقة التى صنعها المصريون فى الجزء الشمالى من افريقيا، تكشفت القارة عن مواقع وآثار حضارية أخرى فى مختلف انحائها جنوباً وشمالاً وشرقاً وغرباً. وأعرق تلك الحضارات ما تمثلت فى الآثار التى تركتها مملكة «كوش» القديمة التى كانت قائمة فى مناطق النوبة العليا بشمال السودان. وكانت مملكة غنية بمواردها من الذهب والعاج والأبنوس، ومدنها الكبرى نباتا ومروى، وجيشها المنظم القوى الذى تمكن من غزو مصر نفسها فى القرن الثامن قبل الميلاد.

وثمة حضارة أفريقية أخرى تمثلت فيما اكتشف من آثار مملكة «أكسوم»

بأثيوبيا . وهى حضارة معروفة منذ القدم . وقد ورد ذكرها بنص يونانى يرجع تاريخه إلى القرن الثالث الميلادى . واكتشفت بها مجموعة من المسلات التى تختلف قليلاً عن شكل المسلات الفرعونية ، ويبلغ ارتفاع إحدى هذه المسلات نحو ٣٣ متراً . كما اكتشفت أيضاً مجموعة من الأعمدة الصخرية نقشت عليها اساطير قديمة مازالت محل دراسة العديد من العلماء .

وفى مناطق المغرب العربى بشمال افريقيا مازالت الحفائر الأثرية تكشف الكثير من الحضارات القديمة المحلية والوافدة التى عمرت مختلف البقاع فى ليبيا وتونس والجزائر والمغرب ، والتى ترجع إلى عصور تاريخية مختلفة ، لعل أهمها الاكتشاف الذى تم فى «تمجاد» بالجزائر، حيث وجدت مستعمرة رومانية كاملة يرجع تاريخها إلى عصر الامبراطور تراچان سنة ١٠٠ ميلادية .

وعلى طول السواحل الشرقية بافريقيا من مقديشيو إلى موزمبيق وبالجزر المجاورة لهذه السواحل مثل بمبا وزنجبار وجزر القمر، عثر على العديد من الآثار الإسلامية التى يرجع تاريخهاإلى عصر الحكم العربى لتلك المناطق التى بلغت درجة كبيرة من التقدم الحضارى خلال القرن الخامس عشر الميلادى .

أما سواحل ومناطق غرب افريقيا فقد شهدت العديد من الحضارات المتعاقبة التى انشأت عدة ممالك وامبراطوريات كشفت عن آثارها البعثات العلمية التى أجرت ــ ومازالت تجرى ــ حفائرها فى تلك المناطق . ولعل أهم تلك الحضارات حضارة «بنين» التى برعت فى صناعة التماثيل المعدنية فى القرون الوسطى ، والتى تعتبر ذات قيمة عالية من الناحيتين التاريخية والفنية معاً ، بل والتى أدت إلى ظهور مدارس الفن الحديث فى أوربا .

ولا يفوتنا قبل أن نغادر قارة افريقيا أن نشير إلى تلك الحضارة المتميزة التى صنعتها القبائل الافريقية بمناطق جنوب غرب القارة .. ونعنى بها حضارة «زمبابوى الكبرى» ذات المبانى الضخمة المشيدة من حجر الجرانيت ، والتى يرجع تاريخها ــ الاحتمالى ــ إلى القرن التاسع الميلادى . وكانت لها علاقات تجارية مع حضارات جنوب شرق آسيا لمبادلة الذهب والعاج بالسلع والمصنوعات الآسيوية الشهيرة .

ومنذ أن عبر الأوربيون الاطلنطى ووصلوا إلى جزر الهند الغربية والأمريكتين فى أواخر القرن الخامس عشر الميلادى، بدأ العالم يعرف الكثير عن الجماعات الإنسانية التى عاشت هناك منذ آلاف السنين، وقيلت فى شأن تلك الجماعات عشرات النظريات عن كيفية وصولها إلى هاتين القارتين المنعزلتين، وعن طبيعة الحياة التى عاشتها ومارستها والمخلفات الأثرية التى تركتها.

وظلت تلك الجماعات الإنسانية تقيم الحضارات تلو الحضارات، وتعمر ربوع القارتين، وهى تعيش طبقاً لنظام جماعى يتخذ شكل القبائل أو شكل الممالك، وتنشىء المدن العجيبة فى الوديان وعلى الهضاب وفوق قمم الجبال، وترسخت لها عادات وتقاليد ومعتقدات دينية خاصة بها، وابتكرت طرقاً لاستصلاح الأراضى وتمهيدها واعدادها للزراعة. وتجلت فنونها التقليدية فى نحت حجر «الجاد» وغيره من الأحجار الصلدة، وفى صب الذهب وصناعة الحلى، وفى صنع الأقنعة من الفيروز، وفى تشكيل الزخارف الفسيفسائية من الريش الملون.

وهكذا عرف العالم الكثير عن حضارات شعوب المايا والأزتك والإنكا.. وعن الآثار التى تخلفت عن تلك الحضارات والتى شدت انتباه الكثيرين من علماء الآثار الذين بذلوا جهوداً جبارة فى محاولة تفسيرها وتوثيقها علمياً. خصوصاً وأن بعض تلك الآثار مازالت تثير حتى الآن كثيراً من التساؤلات والافتراضات: وعلى سبيل المثال نشير إلى الآثار التى وجدت فى المكسيك فى منطقة «تيوتيهوا كان» [ومعناها المكان الذى وجدت فيه الآلهة] وأهمها «هرم الشمس» الذى يرتفع نحو ٧٥ متراً و«هرم القمر» الذى يرتفع نحو ٤٢ متراً. وهما الهرمان اللذان قيلت فى شأنهما نظريات وتفسيرات تفترض إحداها أن المصريين القدماء قد وصلوا إلى الأمريكتين فى الأزمنة القديمة ونشروا هناك ديانة عبادة الشمس وفكرة بناء الأهرام.

• • •

والكتاب الذى يقدمه لنا الاستاذ محمد العزب موسى اليوم كتاب شيق يتضمن مجموعة من الدراسات تدور كلها حول فكرة واحدة تتناول بعض الحضارات والمدن والمناطق التى كانت عامرة فى سالف الأزمان، ثم طواها النسيان ومرور القرون تلو القرون إلى أن أصبحت كالظلال التائهة فى ذكريات

البشر.. ثم جاء العصر الحديث الذى يتميز بحب الإنسان وولعه فى اقتحام المجهول واندفاعه نحو هذا المجهول سواء أكان اندفاعاً فى نبش مخلفاتِ الماضى، أو اندفاعاً نحو ما يخبئه المستقبل من أسرار العلم وآفاق قدرة العقل الإنسان على تحقيق المعجزات.

ويتضمن الكتاب مجموعة من المعلومات التى توصل إليها العلماء والباحثون عن الحضارات المندثرة التى عاشتها الجماعات الإنسانية القديمة فى قارة «اطلانطس».. وهى القارة التى دارت حولها الأقاويل والأساطير والبحوث والدراسات التى تدل على أنها كانت قائمة فى عصر من العصور ثم غرقت بأكملها تحت سطح المحيط.. وحضارة «ديلمون» التى كانت مزدهرة فى العصور القديمة فى منطقة البحرين والشواطىء الشمالية العليا بالخليج العربى.. وحضارة الرومان التى كانت تتجسد بكافة خصائصها فى مدينتى «بومبى» و«هركيولانيوم» اللتين تعرضتا لقسوة انفجار بركان ڤيزوڤ ودفنتا تحت الرماد، إلى أن بدأت حركة الكشف عنهما فظهرت البيوت والقصور والمعابد والدكاكين والنوادى والحمامات والشوارع والحارات، بل وظهرت الأجساد المتحجرة لمجموعات كبيرة من الناس الذين ملأهم الذعر حين كانوا يبحثون عن مفر من جحيم مستعر..

ثم ننتقل عبر المحيط الاطلنطى لنعايش حضارة قديمة مندثرة صنعها شعب الإنكا وهو أحد شعوب الهنود الحمر الذين عانوا كثيراً من غوائل غدر ومخاتلة المستعمرين الاسبان الأوائل الذين رسخوا أقدام الرجل الأبيض فى العالم الجديد..

وأخيراً يذكّرنا المؤلف بأن حضارتنا الإنسانية الحالية قد تزول هى الأخرى كما زالت تلك الحضارات القديمة التى عاشها الإنسان فى مختلف بقاع الأرض. فيأخذنا فى بحث مفصل عن الكوارث الطبيعية التى حاقت بالبشر فى العصور القديمة وأزالت حضارات بأكملها كالفيضانات والبراكين والرياح الصرصر العاتية والظواهر الكونية المدمرة.. ويحذرنا أيضاً من خبايا تلك اللعبة البالغة الخطورة التى ابتكرها الإنسان الحديث الذى صنع المئات والآلاف من القنابل الذرية والهيدروچينية التى يمكن أن تدمر كل مظاهر الحياة على كوكب الأرض فى لمحة عين واحدة.

ومن منطلق هذا المفهوم العميق الذى بسطه لنا مؤلف هذا الكتاب ، أستطيع أن أؤكد أنه بعرضه لتلك الآثار والأحداث الماضية ، يفتح لنا الطريق واسعاً لنتلقى العبرة ، ولنتبصر تلك المخاوف والمخاطر التى تحيق بحضارتنا الحالية وبمجتمعاتنا الإنسانية من كل جانب ، والتى يمكن أن تزيل الحياة من على وجه الأرض ، لولا ستر الله ولطفه .

مختار السويفى .

كورنيش النيل ــ القاهرة فى ٩ سبتمبر ١٩٨٩

اطلانطس

القارة المفقودة

لغز القارة الغارقة

هناك ألغاز كثيرة فى هذا العالم لم تحل.. ربما يكون من أكبرها لغز قارة اطلانطس.. قيل إنها كانت جزيرة كبيرة فى حجم قارة، تقع فى المحيط الأطلسى، وكانت فيها حضارة زاهرة، ثم اختفت من سطح الأرض فى يوم وليلة. ابتلعتها مياه المحيط دون أن يتبقى منها شاهد واحد يدل على وجودها. ولكن بالرغم من اختفائها التام المفاجىء ظلت ذكراها عالقة فى الذهن البشرى آلاف السنين. لم ينجح الزمن فى محوها، ولم تبددها شكوك المتشككين على مدى القرون.

لقد دفنت اطلانطس تحت سطح البحر، ولكن قبرها المائى ظل مفتوحاً يلهب خيال البشرية جيلاً بعد جيل، فوضعت حولها آلاف الكتب والمقالات والروايات والقصص القصيرة والأشعار وأفلام السينما، وأطلق اسمها على سفن ومطاعم ومجلات ومحلات، بل وعلى منطقة محددة فى كوكب المريخ، وتكونت جمعيات للاهتمام بدراستها، وتحرك علماء وباحثون وغواصون للبحث عنها مزودين بأحدث أدوات القرن العشرين.

وبالرغم من ذلك يظل لغز اطلانطس قائماً كما كان منذ كشف عنه لأول مرة الفيلسوف الاغريقى الشهير أفلاطون: هل هى حقيقة أم خرافة؟ هل البحث عنها يقع فى نطاق الدراسات الأثرية أم فى مجال الشوق البشرى لعصر ذهبى أكثر رونقاً وسعادة؟

• • فـــوق الأرض

قيل أن اطلانطس كانت أقرب شيء إلى جنة فوق الأرض، كل الفواكه والخضروات تنمو بوفرة فى أرضها، ومختلف الأزهار والنباتات العطرة تزدهر على سفوح جبالها، وشتى أنواع الحيوانات المستأنسة والبرية تسعى فى مراعيها وغاباتها ومروجها، وتشرب من مياهها وبحيراتها، ومن باطن الأرض تتفجر ينابيع من المياه العذبة الباردة والدافئة تستخدم فى رى المزروعات وتوفير الحمامات لجميع السكان، بل كانت هناك أيضاً حمامات للخيول والحيوانات، فكل ما فيها نظيف لامع طاهر، وكانت أرضها غنية بالمعادن الثمينة التى جعلت سكانها أغنى من أى شعب ظهر قبلهم أو بعدهم، فكانت معابدهم ومبانيهم العامة مزينة ببذخ بالذهب والفضة والنحاس والعاج. أما القصر الملكى فكان تحفة فريدة فى ضخامته وجماله، وكان أهل اطلانطس إلى جانب مهارتهم فى صياغة المعادن ذوى خبرة هندسية متقدمة، فانشأوا شبكات من القنوات والجسور تربط المدينة العاصمة بالبحر والريف المحيط بها، وأقاموا موانىء وأرصفة هائلة ترسو عليها سفن اسطولهم التجارى الذى يحمل تجارتهم إلى أقصى أطراف المسكونة.

لقد أعطى أهل اطلانطس من الخير الوفير ما يجعلهم مستريحين وسعداء فى أى مكان يقيمون فيه، سواء فى المدينة أو الريف، وقد كانوا فى أول عهدهم أناساً لطفاء المعشر، حكماء ودودين، لم يفسدهم ثراؤهم الواسع ولم يغمض عيونهم عن الفضيلة. ولكن مع الزمن أخذ الفساد يدب فى طبيعتهم، فلم يعودوا يقتنعون ببلادهم الوفيرة الخيرات بل أخذوا يتطلعون لحكم البلاد الأجنبية، فاكتسحت جيوشهم الجرارة حوض البحر المتوسط، واستولت على مناطق شاسعة فى أوربا وشمال افريقيا، واستعدت لمهاجمة أثينا ومصر، وهنا قام الأثينيون ضدهم واضطروهم إلى التقهقر إلى حيث جاءوا من وراء جبل طارق، ولكن لم يكد الأثينيون يوقعون بهم الهزيمة وقبل أن يجنوا ثمار النصر، وقعت كارثة كبرى محقت الجيش الاثينى وأدت إلى غرق قارة اطلانطس بأسرها تحت الامواج، وربما يكون عدد قليل من شهود هذه الكارثة قد نجوا ليحكوا ما حدث، وعلى أية حال ظلت القصة عالقة فى الأذهان تروى جيلاً بعد جيل لمدة أكثر من ٩٢٠٠ سنة إلى أن

تم تدوينها لأول مرة، وتحولت من تراث العالم الشفوى، إلى تراث العالم المكتوب.

محـــاورات افلاطـــــون

كان أول من سجل هذه الاسطورة على الورق هو الفيلسوف الإغريقى أفلاطون الذى عاش فى القرن الرابع قبل الميلاد. فحوالى عام ٣٥٠ق.م. ذكر افلاطون قصة اطلانطس فى سياق محاورتين من محاوراته الشهيرة هما «تيماوس» و«كريتياس». وبالرغم من أن أفلاطون يؤكد أن قصة القارة المفقودة مأخوذة من السجلات المصرية القديمة إلا أنه لم يعثر على أى أثر لهذه القصة فى الآثار المصرية أو غيرها من مخلفات أى شعب كان يعيش قبل زمن افلاطون. وهكذا ظلت قصة افلاطون هى المرجع الأول والوحيد لأسطورة اطلانطس وكل ما كتب عنها فيما بعد من كتب ومقالات إنما يعتمد على رواية افلاطون وحدها سواء بالإضافة أو التفسير.

وقد كان أفلاطون أستاذاً فى فن سرد القصص، وكان يضع أفكاره الفلسفية وتفسيراته للأحداث على ألسنة شخصيات روائية يجيد تصويرها وبث الحياة فيها، وربما تكون قصة اطلانطس خيالاً محضاً من اختراع افلاطون لهذا الغرض، ولكن مما يثبت قوتها الخارقة أنها ظلت تعتبر إلى الآن قصة حقيقية بعد أكثر من ٢٣٠٠ عام من كتابتها، وظلت تلهب أفئدة الباحثين إلى درجة أن يغامر بعضهم بشهرته العلمية فى سبيل البحث عن هذه القارة المفقودة أو آثارها فى غابات الأمازون أو تحت سطح المحيط. والواقع أن إقدامهم عن ذلك لم يكن مبعثه قصة أفلاطون وحدها وإنما ضاعفت منه مكتشفاتهم هم أنفسهم لشواهد تدل على أنه كانت هناك ــ فى وقت ما ــ قطعة عظيمة من الأرض اليابسة فى قلب المحيط الأطلسى تقوم كقنطرة بين القارات الثلاث: افريقيا وأوربا وامريكا.

إذ يتساءل الباحثون: لماذا إذن نجد كثيراً من أوجه الشبه بين الحضارات القديمة فى العالم القديم والعالم الجديد على السواء؟ لماذا نجد نفس النباتات والحيوانات على هذه القارات التى تفصل بينها آلاف الأميال من المياه دون وجود وسيلة معروفة لنقلها أو انتقالها؟ كيف استطاع الرجال البدائيون فى كثير من

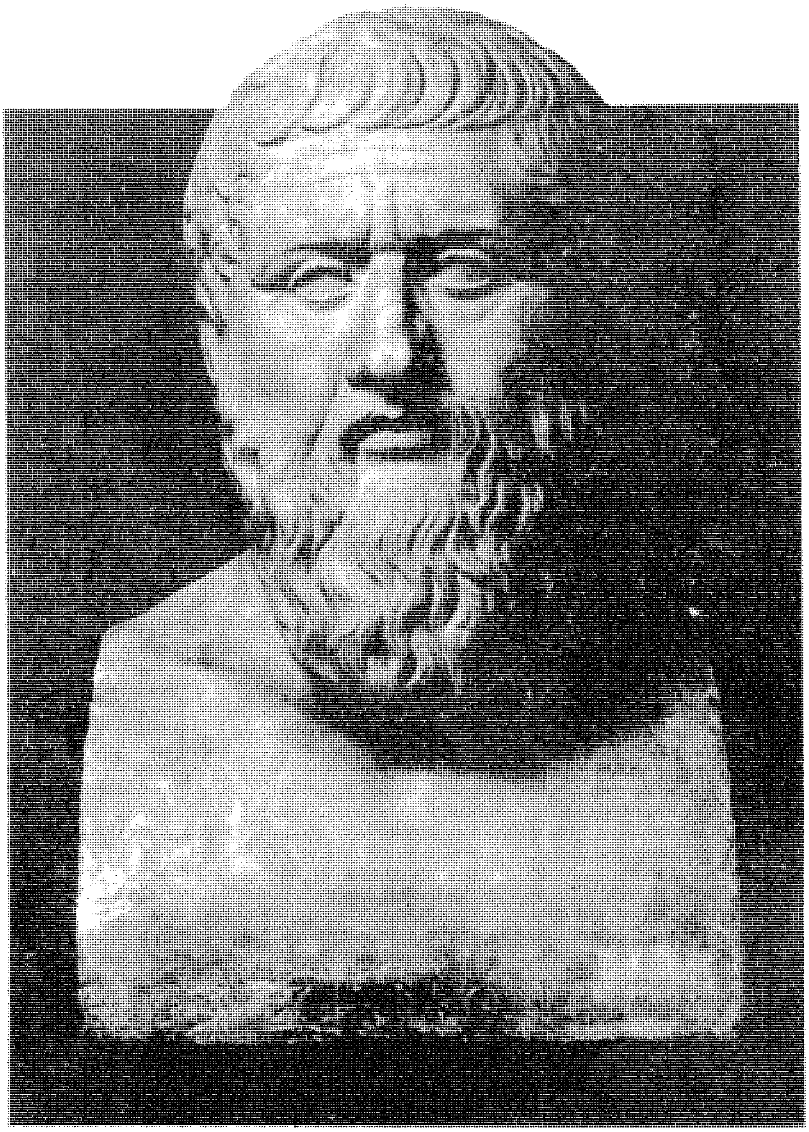
البلاد إقامة منشآت جبارة مثل المبانى الحجرية فى الجزر البريطانية والتماثيل الضخمة فى جزيرة «ايستر» بالمحيط الهادى والمدن الغريبة المقدسة فى غابات أمريكا الجنوبية؟ هل ساعدهم على ذلك جنس متقدم تكنولوچيا لم يلبث أن اختفى؟ ثم لماذا تذكر أساطير كل شعوب العالم نفس القصة عن وقوع كارثة طبيعية كبرى وعن مقدم «آلهة» جلبوا معهم الحضارة من مكان بعيد؟ هل كانت الكارثة التى أغرقت اطلانطس من القوة بحيث أحدثت اختلالاً وخرابا فى كل أنحاء العالم المسكون؟ وهل كان هؤلاء «الآلهة» هم مجرد الناجين من الجنس الأطلنطى الذين تصادف ابتعادهم عن جزيرتهم عندما ابتلعها اليم؟

ان الإجابة على مثل هذه الاسئلة —حتى بدون قصة أفلاطون— تفترض وجود «حلقة ضائعة» بين القارات والحضارات القديمة، حلقة كانت بمثابة «جسر قارى» يسكنه أناس متقدمون حضارياً وتكنولوچيا فى الماضى البعيد. ومع ذلك فإن قصة افلاطون هى التى تكمن حتى الآن فى قلب كل نقاش يؤيد أو يرفض وجود هذه القارة الضائعة.

كان افلاطون —فيما يبدو— ينوى أن يكتب ثلاثية تحتل فيها قصة اطلانطس مكاناً بارزاً، ولكنه أنجز فقط محاورة واحدة منها وجزءاً من المحاورة الثانية، الأولى بعنوان «تيماوس» والثانية بعنوان «كريتياس» وككل محاورات افلاطون الأخرى يلعب الدور الرئيسى فى هاتين المحاورتين المعلم القديم والفيلسوف الاغريقى الكبير سقراط، أما محاوروه الرئيسيون فهم تيماوس وهو فلكى من البلاد الايطالية، وكريتياس وهو شاعر ومؤرخ وقريب من بعيد لافلاطون، وهرموقراطيس وهو قائد عسكرى من سيراكوز. وهؤلاء الأربعة هم أنفسهم الذين أشركهم أفلاطون قبل ذلك بسنوات فى محاورته الشهيرة عن «الجمهورية» وقد وعد فيها بأن يكتب ثلاثية جديدة تستمر خلالها المناقشة بين الرجال الأربعة بالتفصيل حول الحكومة المثالية.

صولون والكهنة

وقد جعل أفلاطون هؤلاء الرجال الأربعة يجتمعون فى منزل كريتياس فى أحد أيام شهر يونيو عام ٤٢١ ق.م. ومن المفروض أن تبدأ محاورة «تيماوس» فى



الفيلسوف اليونانى «افلاطون» أول من حكى قصة قارة اطلانطس فى «محاوراته»
نقلاً عما ذكره الكهنة المصريون القدماء

اليوم التالى لانتهاء المناقشة التى وردت فى محاورة «الجمهورية». ويبدأ الرجال الأربعة بتذكر النقط الرئيسية فى محاوراتهم السابقة، ثم يشير هرموقراطيس إلى «قصة قديمة وردت فى التراث القديم» قال ان كريتياس يعرفها جيداً، وتحت الحاح الرجال الثلاثة يبدأ كريتياس فى رواية تلك القصة، فيذكر كيف أنه حدث منذ قرن ونصف من الزمان أن زار المشرع الاثينى الكبير صولون مصر [صولون شخص حقيقى زار مصر فعلاً ولكن رحلته تمت حوالى عام ٥٩٠ق.م. أى مبكرة بحوالى ٢٠ عاماً عن التاريخ الذى أعطاه أفلاطون] وأثناء وجوده فى «سايس» وهى مدينة مصرية فى شمال الدلتا كانت لها علاقات وثيقة بأثينا أخبره عدد من الكهنة المصريين بقصة اطلانطس، وهى قصة وصفها صولون بأنها «حقيقية بالتأكيد بالرغم من غرابتها»، وكان صولون ينوى أن يسجلها كتابة ليعرفها العالم من بعده، ولكنه لم يفعل، واكتفى بأن رواها لأحد اقربائه ويدعى دروبيدس الذى حكاها بدوره لابنه كريتياس الأكبر وعن طريقه وصلت إلى حفيده كريتياس الذى يشارك فى هذه المحاورة مع سقراط والآخرين.

يحكى كريتياس فى محاورة «تيماوس» كيف أن الكهنة المصريين أبلغوا صولون أنه طبقاً للسجلات القديمة التى لديهم، كانت هناك امبراطورية اثينية عظيمة منذ ٩٠٠٠ سنة (أى حوالى ٩٦٠٠ ق.م.) وكانت تعاصرها فى نفس الوقت امبراطورية عظيمة أخرى تسمى اطلانطس تقع فى جزيرة كبيرة بحجم قارة وراء أعمدة هرقل (مضيق جبل طارق حالياً). كانت هذه القارة أكبر من شمال أفريقيا وآسيا الصغرى مجتمعين، وإلى الوراء تمتد سلسلة من الجزر عبر المحيط تصل إلى قارة ضخمة أخرى.

وكان سكان اطلانطس يحكمون جزيرتهم المركزية وعدة جزر أخرى وأجزاء من القارة الكبيرة على الجانب الآخر للمحيط (امريكا؟) ثم تقدمت جيوشهم شرقاً إلى منطقة البحر المتوسط فاستولت على شمال أفريقيا حتى حدود مصر وجنوب أوربا حتى اليونان. وقال الكهنة المصريون «هذه القوة الهائلة تجمعت كلها وعزمت أمرها على أن تخضع بضربة واحدة بلادنا وبلادكم وكل المنطقة التى تلى المضيق» ولكن أثينا التى كانت تقف وحدها تمكنت من هزيمة الاطلنطيين.. «ثم حدثت بعد ذلك زلازل وفيضانات عنيفة، وخلال يوم واحد وليلة من الدمار

دفن محاربوكم تحت الأرض وكذلك جزيرة اطلانطس اختفت بنفس الطريقة فى أعماق البحر، ولهذا السبب فإن البحر فى تلك الأجزاء غير قابل للملاحة والعبور لأن هناك طيناً ضحلاً كثيراً فى الطريق نتيجة لوجود الجزيرة تحت سطحه » .

ويبتهج سقراط لقصة كريتياس التى يصفها بأن لها « صفات كثيرة تجعل منها حقيقة لا مجرد خيال » ومع ذلك فإن بقية محاورة « تيماوس » تدور فيا بعد حول العلم، ويظل خبر اطلانطس مبتوراً عند هذه النقطة .

وصف اطلانطس

وفى المحاورة الثانية « كريتياس » يتابع أفلاطون اكمال قصة اطلانطس، فيعطى على لسان كريتياس وصفاً أكثر تفصيلاً للجزيرة القارة منذ نشأة الحضارة على الأرض، حين قسمت الأرض بين الآلهة واختص « بوسيدون » إله البحر والزلازل بجزيرة اطلانطس، وأحب « بوسيدون » فتاة من ابناء البشر تدعى « كليتو » كانت تعيش فوق تل فى اطلانطس، ولكى يمنع أى أحد من الاقتراب منها قام « بوسيدون » بتطويق التل الذى تعيش فيه « كليتو » بحلقات متتالية من الأرض والماء « حلقتين من الأرض وثلاث حلقات من الماء .. » وأمد التل بما يكفيه من الماء والغذاء « فجعل نبعين من الماء ينبثقان من باطن الأرض، أحدهما ساخن والآخر بارد، وجعل أنواعاً مختلفة من الغذاء تخرج بوفرة من الأرض » .

وتمضى القصة فتذكر أن بوسيدون وكليتو أنجبا خمسة أزواج توائم من الذكور، وقسم بوسيدون البلاد بين أبنائه العشرة، فكانوا يحكمونها فى شكل « اتحاد ملوك » يرأسه الابن الأول من التوأم الأكبر ويدعى اطلس (وقد سميت الجزيرة باسمه) وأنجب هؤلاء الملوك ابناء كثيرين وحكموا هم وذريتهم من بعدهم أجيالاً متعاقبة .

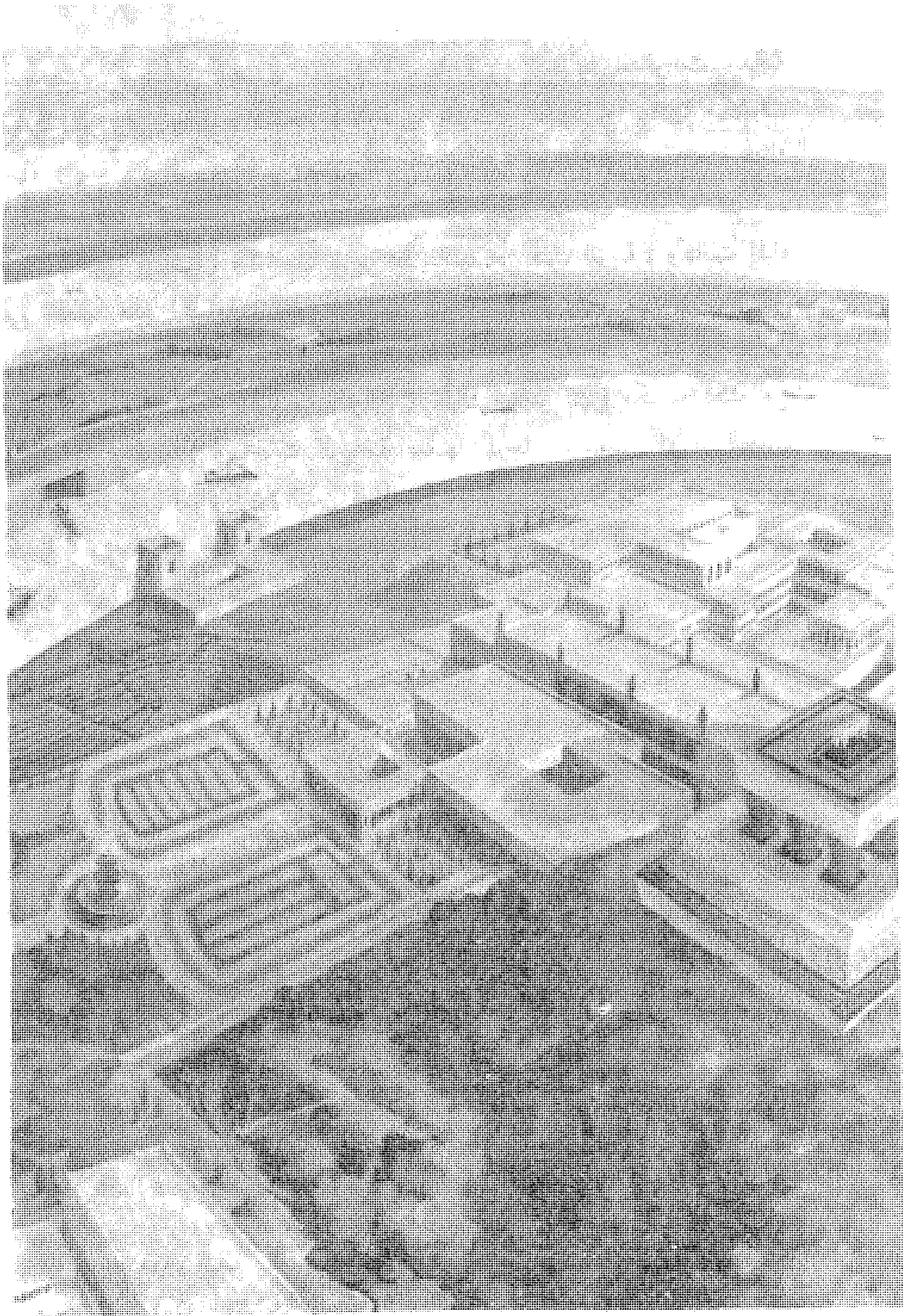
وعمرت اطلانطس، وكثر سكانها، وأقيمت فيها منشآت هندسية وزراعية عظيمة، وبنيت القصور والمعابد، والموانىء والأرصفة، وجنى الحصاد الوفير من الزراعة والتعدين . وكانت مدينة اطلانطس تقوم حول تل « كليتو » على الشاطىء الجنوبى للجزيرة وهى مدينة مستديرة يبلغ محيطها ميلاً، وفى منتصفها بالضبط يقوم تل « كليتو » تحيط به حلقاته المتتالية من الماء واليابسة أشبه بقلعة محيطها

ثلاثة أميال، كما أقام الملوك جسوراً تربط بين الحلقات البرية المحيطة بالتل، وانفاقاً تمر عبرها السفن من حلقة مائية إلى أخرى، وكانت الحلقات البرية مسورة بأسوار ضخمة صخرية مطعمة بالمعادن الثمينة، ويحيط سور ضخم بالمدينة كلها، وكانت الحلقة الخارجية من الماء تستخدم كميناء عظيم تزدحم فيه السفن.

وكانت هناك قناة عظيمة يبلغ عرضها ٣٠٠ قدم وعمقها ١٠٠ قدم تربط بين الحلقة المائية الخارجية التى تستخدم كميناء وبين البحر على الشاطىء الجنوبى. وخارج أسوار المدينة يمتد سهل زراعى فسيح تحميه الجبال فى هيئة قطاع مثلث مساحته ٢٣٠×٣٤٠ ميلاً ومقسم إلى ٦٠ ألف قطعة زراعية موزعة على الفلاحين، أما الجبال فتقوم عليها «قرى كثيرة غنية».. وتتكفل الانهار والبحيرات والمراعى بتوفير الطعام لكل من يدب بقدميه فى اطلانطس من انسان وحيوان أليف وضار وكانت هناك أيضاً أخشاب كثيرة من كل نوع تستخدم فى مختلف الأغراض. وكان سكان الجبال وبقية البلاد مقسمين تحت زعامات محلية يتم اختيارها حسب الأحياء والقرى. وهؤلاء الزعماء يمدون الجيش بحاجته من الرجال وكان جيش اطلانطس مكوناً من المشاة ذوى الأسلحة الخفيفة والثقيلة والفرسان والعربات.

العمارة والقصور والمعابد

ويرسم أفلاطون على لسان كريتياس صورة زاهية للعمارة والهندسة فى اطلانطس حيث كانت القصور والمعابد والمبانى العظيمة مبنية بالاحجار الملونة، البيضاء والحمراء والسوداء، وفى المعابد بالذات كان أهل اطلانطس يصبون أقصى مهارتهم الفنية والتكنولوچية، ففى وسط القلعة أقاموا معبداً مقدساً لكليتو وبوسيدون يحيط به سياج من الذهب، وإلى القرب منه يقوم معبد بوسيدون الخاص وهو عبارة عن عمارة هائلة مغطاة بالفضة وأعمدتها من الذهب، وكان سقف المعبد من الداخل مكسوا بالعاج ومزينا بالذهب والفضة والنحاس النقى اللامع «الذى يتوهج كالنار». وفى داخل المعبد تمثال ضخم من الذهب لبوسيدون وهو يقود عربته التى تجرها ستة خيول مجنحة وتحيط بها ١٠٠ حورية من حوريات البحر يركبن فوق درافيل، وهذا التمثال من الفخامة بحيث كان رأسه يلامس سقف المعبد. وفى خارج المعبد كانت تقوم تماثيل ذهبية للملوك العشرة الأولين وزوجاتهم.



رسم متخيل لما كانت عليه مباني وقصور اطلانطس تحيط بها حلقات المياه

ويمضى كريتياس فيصف المبانى الجميلة التى تتخللها النافورات الدافئة والباردة، وزرعت وسطها الأشجار والأزهار، وأقيمت الصهاريج بعضها مكشوف للسماء والبعض مغطى بسقف حيث كانت تستخدم كحمامات «وكانت هناك حمامات للملوك، وحمامات للعامة، وكانت هناك أيضاً حمامات منفصلة للنساء، وغيرها للخيول والماشية، وكل منها مزين بما يناسبه من فنون الزينة، وكانت المياه التى تلفظها هذه الحمامات يحمل بعضها إلى حديقة بوسيدون حيث تنمو كل أنواع الأشجار العجيبة البالغة الطول والجمال، أما باقى المياه فتنقل عبر مواسير فى الجسور إلى حلقات الماء الخارجية، وكانت هناك معابد كثيرة مكرسة لكثير من الأرباب، وحدائق، وساحات للرياضة بعضها للرجال والبعض الآخر للخيول تقوم فى الجزيرتين الدائريتين (اللتين تحيط بهما حلقات الماء) وفى منتصف الجزيرة الكبيرة منها كانت هناك حلقة لسباق الخيل عرضها ٦٠٧ أقدام وتمتد بطول الجزيرة كلها تقام فيها مباريات السباق.

مراسم التضحية بالثيران

وكان الملوك العشرة الذين يحكمون اطلانطس يجتمعون فى معبد بوسيدون مرة كل خمس أو ست سنوات للتشاور فى شئون الحكم واقرار العدل وأثناء هذا الاجتماع كانت تجرى مراسم غريبة، إذ بعد أن ينتهى الملوك من الصلاة للآلهة كانت تبدأ عملية صيد الثيران التى تتجول طليقة فى ساحات المعبد، وكان عليهم أن يستخدموا فى الامساك بها العصى والحبال فحسب فإذا أمسكوا باحدها قادوه إلى عمود من البرونز داخل المعبد نقشت عليه قوانين اطلانطس حيث يذبح الثور وتسيل دماؤه على النقوش المقدسة وبعد انتهاء مراسم القربان كان الملوك يشتركون فى مأدبة حافلة، وعندما يسقط الظلام يلتحفون بأرواب زرقاء ويتحلقون فى دائرة للنطق بأحكامهم التى يسجلها الكتبة فى ألــواح من الذهب عندما يطلع الصباح.

ولكن مع مرور الزمن بدأ أهل اطلانطس يفقدون حب الحكمة والفضيلة الذى ورثوه عن بوسيدون، وتلوثت طبيعتهم المقدسة. وتغلبت عليها الطبيعة البشرية فصاروا جشعين فاسدين محبين للسيطرة، وعندئذ ــ كما يقول أفلاطون ــ «أدرك

زيوس ، رب الأرباب ، الذى يحكم بالقانون والذى يستطيع أن يرى مثل هذه الأشياء ، ان جنساً نبيلاً قد دب فيه الفساد وأصبح فى حالة سيئة ، فأراد أن يعاقبهم من أجل أن يطهرهم ويحسنهم ، فجمع كل الآلهة فى مقره المقدس الذى يقع فى مركز الكون حيث يمكنه أن يرى كل الاشياء ، وعندما اجتمعوا جميعاً تحدث زيوس فقال .. » .

وهنا ، للأسف ، تنقطع قصته أفلاطون عن اطلانطس ولا يعود إلى تكملتها بعد ذلك أبداً ، ويعتقد بعض الدراسين أن محاورة « كريتياس » كانت مجرد مسودة تخلى أفلاطون عن تكملتها ، ويعتقد آخرون أن أفلاطون كان ينوى اكمال القصة فى الجزء الثالث من الثلاثية التى وعد بكتابتها ، ولكنه لم يفعل ، وكتب بدلاً منها محاورته الأخيرة « القوانين » .

صعوبات تثيرها القصة

ثار الخلاف حول قصة أفلاطون منذ كتبها من ٢٣٥٠ سنة ولا يزال مستمراً للآن ، هل هى قصة حقيقية ؟ أم نصف حقيقية ؟ أم خيال صرف ؟ ولكل رأى معتنقوه الذين دافعوا عنه عبر القرون بل إن قصة أفلاطون ما تكاد تذكر فى أى عصر إلى عصرنا الحاضر حتى ينقسم سامعوها فوراً بين مؤيد ومعارض .

ومن المؤكد أن قصة أفلاطون عن القارة المفقودة اطلانطس تثير عديداً من الصعوبات يراها المعارضون كفيلة بدمغ القصة بالخرافة والخيال ، أما المؤيدون فيقولون أن هذه الصعوبات يمكن فهمها فى حجمها ولا تؤثر فى جوهر القصة وأنها غالباً ما ترجع إلى المبالغة أو الأخطاء التى زحفت على القصة عبر قرون طويلة من تداولها قبل أن تصل إلى مسامع أفلاطون .

أكبر هذه الصعوبات بالفعل هو التاريخ الذى يعطيه أفلاطون لدمار اطلانطس ، فهو يقول أن الكهنة المصريين أبلغوا صولون بأن هذا الدمار حدث قبل زيارته لمصر بنحو ٩ آلاف سنة ــ أى حوالى عام ٩٦٠٠ ق.م ــ وهو تاريخ أقدم من أى حضارة معروفة ، خاصة أن أفلاطون يذكر أيضاً أنه فى ذلك الوقت كانت أثينا مركزاً لحضارة عظيمة وأنها أوقعت الهزيمة باطلانطس ، فى حين يؤكد الاثريون أن علمهم الوثيق بتطور الحضارة الاغريقية منذ بداياتها الأولى ينفى

احتمال وجود أى شعوب متقدمة فى الجزر اليونانية فى مثل هذا الوقت المبكر، وعلى ذلك إما أن تكون قصة أفلاطون محض اختراع أو أن أفلاطون يذكر تاريخاً خاطئاً.

والصعوبة الثانية تتعلق بمصدر القصة، فإنه إذا كانت الحرب قد وقعت أساسا بين أثينا واطلانطس فلماذا لم توجد سجلات اغريقية عن هذه المعركة؟ وكيف يكون المصدر الوحيد لمعرفتها هو مصر؟ غير أن أفلاطون يفسر ذلك بأن الكهنة المصريين أبلغوه أن السجلات الاغريقية قد دمرت نتيجة سلسلة متعاقبة من الكوارث بينما نجت سجلاتهم هم، والمشكلة إذن أنه إذا كانت مثل هذه السجلات المصرية موجودة بالفعل فى زمن زيارة صولون فإنها قد اختفت تماماً هى أيضاً كما اختفت اطلانطس ولم نعد نسمع بالقصة إلا من رواية أفلاطون.

وإذا افترضنا ان صولون سمع بالقصة حقاً من كهنة سايس أثناء زيارته لمصر، فهل يمكن أن تكون هذه القصة بكل تفاصيلها الدقيقة قد انتقلت شفاهة من جيل إلى جيل لمدة ١٥٠ عاماً إلى أن سمعها أفلاطون كما يريدنا أن نصدق؟ ولكن ذلك ليس بالمستحيل، لأن فن الرواية الشفوية أحرز تقدماً كبيراً فى العصور القديمة، وليس هناك ما يمنع أن يكون اغريقيون آخرون قد سمعوا بقصة اطلانطس ولكن أفلاطون هو أول من سجلها كتابة فى محاوراته.

كما يذكر أفلاطون على لسان كريتياس أن صولون كتب مذكرات عن مناقشاته مع الكهنة المصريين وأنه سلم هذه المذكرات إلى أقاربه اجداد كريتياس. وهذه النقطة تثير صعوبة جديدة، فبينما يقول كريتياس فى أحد المواضع أنه لايزال يمتلك هذه المذكرات فى حوزته نراه فى موضع آخر يذكر أنه قضى ليلة بأكملها يحاول أن يسترجع تفاصيل قصة اطلانطس كما سمعها من جده كريتياس الأكبر كى يقصها على رفاقه. لماذا إذن لم يرجع إلى هذه المذكرات لينعش ذاكرته؟ بل لماذا لم يقدم هذه المذكرات نفسها إلى رفاقه الثلاثة كدليل لايمكن رفضه يؤكد صحة قصته الغريبة؟

وهناك صعوبة أخرى تتعلق بالتاريخ الذى يعطيه أفلاطون لرواية القصة، فهو يذكر أن الاجتماع الذى تم بين سقراط وزملائه الثلاثة ونوقشت فيه قصة اطلانطس حدث فى عام ٤٢١ ق.م. وكان أفلاطون حاضراً فى هذا الاجتماع.



رأس تمثال «صولون» أول يونانى استمع إلى قصة قارة اطلانطس التى حكاها له الكهنة المصريون حين زار مصر

وإذا كان ذلك صحيحاً فإن عمر أفلاطون عندئذ كان ست سنوات، وهو عمر لا يستطيع فيه أن يدرك طبيعة المناقشة دعك من أن يستوعب تفاصيلها على هذا النحو، وعلى ذلك إما أن تكون قصة أفلاطون مؤسسة على معلومات نقلها إليه شخص آخر، أو أن يكون تاريخ الاجتماع خطأ، أو أن يكون هذا الجزء من القصة على الأقل ليس صحيحاً.

ويعتقد نقاد قصة اطلانطس أن هذه القصة ببساطة مجرد اختراع من أفلاطون كي يسوق خلالها أفكاره عن الحضارة والحرب والفساد خاصة أن أفلاطون تعود أن يلجأ إلى هذا الأسلوب في محاوراته فكان يضع أفكاره على ألسنة أناس آخرين وفي أطـــر حوادث مختلفة أحياناً فليس هناك ما يمنع أن يكون أفلاطون قد نحا هذا المنحى أيضاً في محاورتيه «تيماوس» و«كريتياس». ولكن الملاحظ أن أفلاطون بصدد هذه القصة بالذات يحرص على أن يؤكد أنها حقيقية، ويجعل مصدرها صولون، وهو سياسي حقيقي كبير الاحترام وكان مشهوراً بالصدق اللائق بمشرع كبير، فنجد كريتياس يعلن أن قصة اطلانطس «رغم أنها غريبة إلا أنها حقيقية بالتأكيد» ويوافقه سقراط على ذلك. ثم إذا كان غرض أفلاطون الوحيد أن يوصّل بهذه القصة أفكاره الفلسفية فلماذا يملأ قصته بكل هذه التفاصيل الدقيقة التي لا تخدم في شيء فكرته الأساسية؟ ثم لماذا تراه يتوقف فجأة عن اكمال القصة في الوقت الذي يتوقع فيه المستمعون ظهور المغزى ووصول الرسالة؟

الذاكرة الجماعية

ولكن، بالرغم من هذه الصعوبات والاخطاء والتناقضات التي تنطوي عليها رواية أفلاطون عن اطلانطس إلا أنه لا يزال من الممكن اعتبارها تسجيلاً لأحداث حقيقية..

فالتاريخ يمدنا بأمثلة كثيرة عن أماكن أو أحداث علقت بالذاكرة الجماعية وكان من المعتقد أنها اسطورية أو خرافية ثم نكتشف بعد ذلك صحتها أو وجودها الفعلي..

من هذا القبيل ما ذكره هوميروس عن مدينة طروادة في ملحمتيه الشهيرتين «الالياذة» و«الأوديسه»، وقد عاش هوميروس حوالي عام ٨٥٠ ق.م. أي قبل

أفلاطون بحوالى ٥٠٠ عام، وقد ظل دارسو هوميروس طوال العصور يعتقدون أن طروادة مدينة خيالية من نسج أفكار هوميروس إلى أن جاء الأثرى الألمانى هنريش شليمان فى عام ١٨٧١ وكشف بالفعل عن مدينة طروادة فى منطقة هيساراليك فى شمال غرب تركيا وفى نفس المكان الذى حدده هوميروس لها تماماً، حتى قيل أن شليمان كان يبحث عن طروادة وهو «يمسك هومر فى يد والمعول فى يد أخرى»، وقد كان معاصرو شليمان يسخرون من محاولته للبحث عن طروادة الخيالية فى اعتقادهم إلى أن فوجئوا به ينتشلها من تحت طبقات الثرى!

وجاء بعد ذلك سير آرثر ايفانز وفعل نفس الشيء باكتشافه قصر التيه الذى كان يعيش فيه الوحش الاسطورى «المينوطورس» فى كنوسوس بكريت، وكان من المعتقد كذلك أن حضارة كريت أو ما يسمى بالحضارة المينوية مجرد خيال وأساطير ولكن سير ايفانز أثبت أنها حضارة حقيقية متقدمة أزدهرت قبل زمن هوميروس بوقت طويل أو منذ حوالى ٤٥٠٠ عام من وقتنا الحاضر.

ان هذين المثالين كافيان لأن نقدر صدق الذاكرة الجماعية وننظر بالتالى إلى قصة أفلاطون عن اطلانطس بذهن متفتح، ولكن المشكلة هى أنه بينما طروادة وكنوسوس مدفونتان تحت طبقات الثرى فإن اطلانطس غارقة على عمق مئات أو ربما آلاف الأقدام تحت أمواج المحيط، وحتى على فرض وجودها فلابد أن تكون عوامل التحات والتآكل قد خربتها بدرجة لا يمكن معها التعرف عليها الآن. ومع ذلك إذا كانت رواية أفلاطون مؤسسة على وقائع حقيقية فلابد أن تكون هناك آثار ما عن اطلانطس، ويخبرنا أفلاطون أن أهل اطلانطس كانوا يتصلون بالأمم المجاورة ويتبادلون معها التجارة، فهل يمكن مثلاً أن نعثر على أدلة وجودهم فى حضارات هؤلاء الجيران؟ هذا ما يعتقده مؤيدو القصة، فيقولون ان مثل هذه الأدلة كثيرة بالفعل، فإن هناك فى المنشآت الهندسية والتكنولوجية البالغة القدم فى العالم القديم ما يؤكد احتمال وجود حضارة بالغة الرقى على طراز حضارة اطلانطس لم نعد نعرف عنها شيئاً.

* * *

هكذا يستمر الحوار بين رافضى اطلانطس ومؤيديها ، الأولون يقولون أنها اسطورة لا ظل لها من الواقع اخترعها أفلاطون ليبث خلالها أفكاره الفلسفية ، وإذا كانت قد علقت بالأذهان فيما بعد فلأنها تعبر عن حاجة البشرية إلى الاعتقاد فى وجود عصر ذهبى قديم كانت فيه الحياة أكثر مثالية والرجال والنساء أكثر فضيلة وكمالاً . والآخرون يؤكدون أن الصورة التى لدينا عن الحضارة والتطور البشرى غير كافية أو كاملة ، واننا نختار أن نتجاهل الألغاز التى لا تبدو متوافقة مع هذه الصورة الناقصة دون أن ندرك أن هذه الألغاز نفسها يمكن أن تكون مفتاحاً لمزيد من الفهم لماضينا الغامض . ومن هذه الألغاز قارة اطلانطس التى تقوم شواهد كثيرة على وجودها ، وإذا عثرنا عليها بالفعل سوف يتبدد أى شك بصددها وسوف يوضع كل شىء فى مكانه الصحيح .. ويضيفون أننا أصبحنا الآن بالفعل قاب قوسين أو أدنى من حل هذا اللغز القديم بفضل ماتملك من وسائل البحث والكشف الحديثة وان البحث عن اطلانطس يعد اهتماماً علمياً له مايبرره ، وقد نتمكن خلال هذا الجيل بالتحديد من الوصول إلى كلمة أخيرة حول هذا اللغز القديم : هل اطلانطس حقيقة أم خرافة ؟



العالم الأثرى «آرثر إيفانس» الذى اكتشف آثار حضارة «كريت» ونال نتيجة لذلك شهرة عالمية

البحث عن اطلانطس

منذ كتب أفلاطون عن القارة المفقودة «اطلانطس» لم يكف الكتاب والباحثون والمستكشفون عن البحث عن هذه القارة و«العثور» عليها بالفعل فى شتى أنحاء الأرض!

فكان فرنسيس بيكون الفيلسوف الانجليزى فى القرن السابع عشر يعتقد أن اطلانطس التى أشار إليها أفلاطون هى نفسها القارة الامريكية التى اكتشفها كولومبس حديثاً. وكتب فيلسوف سويدى يدعى أولوف روبيك كان يعيش فى القرن السابع عشر أيضاً «مثبتاً» ان اطلانطس هى نفسها السويد. وفى القرن الثامن عشر أكد الفلكى الفرنسى جين بيلى ــ الذى أصبح من ضحايا الثورة الفرنسية فيا بعد ــ وجود اطلانطس فى المنطقة القطبية الشمالية، أما فرنسيس ويلفورد ــ وهو ضابط بريطانى كان يخدم فى الهند فى القرن التاسع عشر ــ فقد كان مقتنعاً بأن الجزر البريطانية هى من بقايا قارة اطلانطس الغارقة، وانتقل هذا الاقتناع إلى الشاعر ويليام بليك الذى أيده فيه بحماسة.

ولم يقتصر الأمر على ذلك، بل ان كثيرين من الباحثين الآخرين ــ وبعضهم كرس كل حياته لهذا الغرض ــ وضعوا اطلانطس فى أماكن كثيرة أخرى: شمال أفريقيا. جنوب افريقيا. وسط أمريكا. استراليا. فرنسا. بحر الشمال. سردينيا. فلسطين. لبنان. مالطة. الصحراء الكبرى. شرق بروسيا. البلطيق. سيبيريا. جرينلاند. العراق. ايران. البرازيل. المحيط الهادى. المحيط الهندى..

وبالطبع كان سكان هذه المناطق يتحمسون لهذه النظريات لأن وضع اطلانطس فى بلادهم أو بالقرب منها يعطيهم حجة معقولة فى القول بأنهم من أحفاد الناجين من هذه القارة العظيمة.

وقد يبدو غريباً أن نلاحظ أن معظم هذه النظريات تضع اطلانطس فوق أرض صلبة وليس فى المحيط كما أشار أفلاطون ولكن يبدو أن السبب الظاهر لذلك أن معدات الاستكشاف تحت سطح البحر لم تكن قد عرفت بعد، فانها قد ظهرت مؤخراً جداً، بما فى ذلك الطائرات التى تصور من الجو، والغواصات، ومعدات التصوير والقياس تحت سطح الماء. وبظهور هذه المعدات بدأ الاهتمام يتركز حول وجود أطلانطس فى مكانها الأصلى الذى أشار اليه أفلاطون وهو المحيط الأطلسى ابتداء من مدخل جبل طارق إلى البحر الكاريبى. والواقع أن الأغلبية العظمى من الباحثين الذين اهتموا بلغز أطلانطس يشاركون أفلاطون اعتقاده فى وجود أطلانطس فى المحيط الأطلسى، وقد جمعوا بالفعل مادة ضخمة تؤيد هذا الاعتقاد.

ايجناتيوس دونيللى

من أهم الباحثين عن أطلانطس الكاتب الأمريكى ايجناتيوس دونيللى الذى يلقب أحياناً بمؤسس علم «الأطلنطيولوچى» نسبة إلى القارة المفقودة، وقد كان دونيللى يتمتع بنشاط بدنى وفكرى هائل جلب له النجاح فى سن مبكرة. ولد دونيللى فى فيلادلفيا عام ١٨٣١، ودرس القانون، وانضم إلى رابطة المحامين فى سن الثانية والعشرين، وبعد ذلك بثلاث سنوات ذهب هو وزوجته وعدد من أصدقائه إلى مينوسوتا حيث اشتروا قطعة شاسعة من الأرض الخلاء بالقرب من سان بول بهدف أن يقيموا عليها مدينة كبيرة أسموها «نينجرسيتى»، ولكن المشروع حاق به الفشل ولم تتطور المدينة الوليدة، بسبب الكساد المالى الذى حدث فى خمسينات القرن الماضى.

بعد ذلك وجه دونيللى اهتمامه للسياسة، وانتخب حاكماً لمينوسوتا فى سن الثامنة والعشرين، وبعد أربع سنوات أخرى انتخب عضواً بالكونجرس حيث قضى

دورتين من ثماني سنوات ، وكان دونيللى خطيباً مفوهاً ساحراً ، واكتسب احترام زملائه أعضاء مجلس النواب ، ولكن وراء هذا المظهر الخارجي كان دونيللى يعانى من الوحدة الحادة خاصة بعد وصوله إلى واشنطون ووفاة زوجته ، فاتجه دونيللى إلى القراءة والدراسة بحثاً عن العزاء ، وأكب على مكتبة الكونجرس الضخمة حيث كان يقضى الساعات الطوال يلتهم كل صنوف المعرفة .

وهزم دونيللى فى انتخابات ١٨٧٠ فعاد إلى منزله فى نينجرسيتى ، مدينة الأشباح التى حاول انشاءها ، وهناك ــ بين أوراقه ومكتبته الشخصية الكبيرة ــ بدأ يضع الكتب التى جعلت منه شهيراً ليس فى أمريكا وحدها وانما فى العالم أجمع ، فبعد سنوات من العزلة والفقر عكف خلالها على موضوعه الوحيد المحبب نشر دونيللى تحفته الكبرى « اطلانطس وعالم ما قبل الطوفان » فى عام ١٨٨٢ ، وأحرز هذا الكتاب على الفور شهرة عمت الآفاق ، وفى العام التالى أخرج كتابه الثانى « راجناروك .. عصر النار والحصباء » وأصبح أيضاً من أوسع الكتب انتشاراً وهو يتعلق بالكوارث الطبيعية الكبرى كالتى يفترض انها أغرقت اطلانطس ، ومما يدل على النجاح الواسع الذى أحرزه دونيللى ان كتابه الأول مثلاً طبع أكثر من خمسين طبعة ولا يزال موجوداً فى الأسواق حتى الآن بعد قرن من صدوره ، ويرجع إلى دونيللى الفضل فى تحويل اطلانطس من موضوع للنقاش بين المثقفين إلى موضوع جماهيرى يثير أخيلة الملايين .

لم يكتف دونيللى بتأكيد رواية أفلاطون وتفسيرها وانما أضاف الكثير من النتائج التى توصل اليها بأبحاثه الخاصة ، ويمكن تلخيص نظرية دونيللى فى ١٣ نقطة رئيسية :

(١) كانت توجد فى المحيط الأطلسى فى مواجهة مدخل البحر المتوسط جزيرة كبيرة هى البقية الباقية من قارة اطلانطس الكبرى فى العصور الجيولوجية القديمة ، وكانت الجزيرة معروفة لسكان العالم القديم باسم اطلانطس .

(٢) ان وصف أفلاطون لهذه الجزيرة والحضارة التى كانت قائمة عليها ليس قصة خيالية وانما تاريخ حقيقى .

(٣) كانت أطلانطس هى المكان الأول الذى انتقل فيه الإنسان من البربرية إلى الحضارة.

(٤) أصبحت أطلانطس مع الزمن أمة قوية كثيفة السكان وخرجت منها هجرات متتالية عمرت شواطىء خليج المكسيك ونهر المسيسيبى، والأمازون، وساحل أمريكا الجنوبية، والبحر المتوسط، والشاطىء الغربى لأوربا وأفريقيا، وبحر البلطيق، والبحر الأسود، وبحر الخزر فجميع هذه الجهات سكنتها أقوام متحضرة جاءت أصلاً من أطلانطس.

(٥) ان أطلانطس كانت العالم البشرى فيا قبل الطوفان، وكل أساطير الشعوب التى تشير إلى جنة قديمة أو عصر ذهبى قديم انما تشير إلى الحياة البشرية المبكرة فى أطلانطس حيث كان يسودها الوئام والسعادة.

(٦) ان الآلهة والأرباب لدى الاغريق القدامى والفينقيين والهنود والاسكندنافيين هم ببساطة ملوك وملكات وأبطال أطلانطس القديمة، والأفعال التى تعزى إليهم فى الأساطير هى أحداث تاريخية حقيقية ولكنها مشوهة.

(٧) ان ديانة مصر القديمة وبيرو هى نفسها الديانة الأصلية لأطلانطس والتى هى عبادة الشمس.

(٨) ان أقدم مستعمرة أقامها أهل أطلانطس خارج بلادهم ربما هى مصر حيث تعتبر حضارتها صورة طبق الأصل من حضارة أطلانطس.

(٩) ان أدوات العصر البرونزى فى أوربا مأخوذة من أطلانطس حيث كان أهل أطلانطس أول من استخدم الحديد والمعادن.

(١٠) ان الأبجدية الفينيقية التى هى أم كل الأبجديات الأوربية مأخوذة من الأبجدية الأطلانطسية التى انتقلت أيضاً من أطلانطس إلى المايا فى أمريكا الوسطى.

(١١) ان أطلانطس هى المهد الأصلى للشعوب الآرية والشعوب السامية وربما أيضاً الشعوب التورانية، وتتشارك هذه الشعوب جميعاً فى ذكرياتها عن أسطورة الطوفان.

(١٢) ان أطلانطس اختفت نتيجة لانقلاب طبيعى عنيف أغرق الجزيرة بأكملها تحت مياه المحيط بكل سكانها تقريباً.

(١٣) ان عدداً قليلاً من سكان أطلانطس استطاعوا النجاة بالسفن أو القوارب، وهؤلاء حملوا إلى مسامع الشعوب الأخرى فى الشرق والغرب تفاصيل الكارثة الكبرى التى محقت بلادهم وهى التى عاشت فى ذاكرة الشعوب القديمة والحديثة فى صورة أساطير الطوفان والفيضانات.

مناقشة نظرية دونيللى

وهكذا يبدو أن دونيللى لم «يكتشف» أطلانطس فحسب، وانما حل أيضاً جميع الغاز الماضى، فهو يعتبر أن أطلانطس كانت منبع الحضارة [وهو زعم لم يقل به أفلاطون] وأنها أوحت بأساطير مختلف الشعوب [وهى متشابهة حقاً فيما بينها]، كما يزعم دونيللى ان التشابه بين أجناس النبات والحيوان فى القارتين الأوربية والأمريكية مرجعه أن لها أصلاً مشتركاً فى أطلانطس، فيقول نقلاً عن خبراء متخصصين ان الطباق والجوافة والقطن والموز لم تكن وقفاً على احدى القارتين دون الأخرى قبل اكتشاف كولومبس للعالم الجديد كما هو شائع، وانما كانت هذه المحاصيل وأمثالها تنمو فى القارتين على السواء، وفى اعتقاده ان هذه النباتات عبرت المحيط الأطلسى عن طريق الجسر البرى الذى كانت تمثله أطلانطس.

وكان دونيللى يعتقد أن حضارة مصر القديمة ظهرت فجأة ولم تتطور تدريجياً عبر آلاف السنين مما يشير إلى أنها مستوردة من مكان آخر، وتراه يقتبس ــ تأييداً لرأيه ــ فقرة للكاتب الفرنسى أرنست رينان الذى عاش فى القرن التاسع عشر يقول فيها: «ان مصر منذ البداية تبدو ناضجة، قوية، ليست لها عصور اسطورية أو بطولية، كما لو كانت أمة بلا شباب، حضارتها بلا طفولة، وفنها بلا مهد» ويستند دونيللى إلى هذه الفكرة وإلى حقيقة وجود تشابه بين الحضارة المصرية وحضارات أمريكا القديمة للقول بأن مصر استعمرها الناجون من أطلانطس ونقلوا اليها الحضارة التى تبلورت فى حياتهم الأولى.

كما يرى دونيللى ان المايا فى أمريكا الوسطى هم أيضاً من جنس أطلانطس لأنهم يمتلكون أبجدية مشابهة لأبجديات العالم القديم ولأنهم يعتقدون أن حضارتهم جاءت «عبر البحر فى سفن قدمت من الشرق» أى من اتجاه أطلانطس.

وقد بذل دونيللى جهداً كبيراً فى اثبات وجود صلة بين أطلانطس وغيرها من الحضارات بتحليل المفردات اللغوية، ويقول أن لغات العالم الجديد (أمريكا) على صلة وثيقة بلغات العالم القديم، وأورد قوائم متوازية لكلمات من مختلف هذه اللغات اثباتاً لوجهة نظره.

وهكذا، فإن هؤلاء الذين يعتقدون فى وجود أطلانطس ويقرون ان قصة أفلاطون بها كثير من الثغرات والأسئلة التى لا جواب لها يمكنهم أن يرجعوا إلى دونيللى لملء هذه الثغرات والحصول على أجوبة لهذه التساؤلات، فالذى فعله دونيللى انه كسا عظام أسطورة أفلاطون لحماً. والواقع ان كل كاتب عن أطلانطس جاء بعد دونيللى أخذ عنه، ولا يزال كتاب دونيللى يعد بمثابة مرشد لعلم الأطلنطيولوچى إلى اليوم.

ولكن، هل يستحق دونيللى شهرته فعلاً؟

ان أسلوب دونيللى القوى، وثقافته الغزيرة، وحماسته لفكرته، واعتقاده الجازم فى صحة آرائه.. كل هذه الأشياء تكتسح القارىء وتخفى عنه كثيراً من الأسس الخاطئة التى تقوم عليها نظريته.. ويقول سبراجو دى كامب الذى تخصص فى نقد الكتابات المتعلقة باطلانطس «ان معظم الحقائق التى اعتمد عليها دونيللى إما أنها كانت خاطئة عندما استخدمها، أو ثبت خطؤها بعد ذلك نتيجة للاكتشافات التالية».

ويشير دى كامب إلى أن دونيللى أخطأ فى اعتقاده ان هنود بيرو كانوا يملكون نظاماً للكتابة خاصاً بهم، وأخطأ كذلك فى القول بأن نبات القطن فى العالم القديم والعالم الجديد ينتمى إلى نفس النوع، وكذلك فإن مقارنات دونيللى بين أبجديات العالم القديم والعالم الجديد غير دقيقة ومؤسسة على ما يعتبره دونيللى «أبجدية المايا» وهى تكاد تكون من اختراع دونيللى نفسه لاثبات وجود «أشكال وسيطة» بين اللغة اللاتينية ولغة المايا المزعومة، وكذلك ليس هناك تشابه بين لغة هنود المكسيك واللغة الصينية القديمة.

ولكن مثل هذه الأخطاء العلمية مضت دون أن يفطن اليها أحد، ولا يزال دونيللى يتمتع بكثير من الأنصار، وعندما نشر دونيللى كتابه الأول سرعان ما طبقت شهرته الآفاق حتى أن ويليام جلادستون رئيس وزراء بريطانيا فى ذلك الحين كتب اليه معبراً عن تقديره وحماسته، بل قد حاول جلادستون أن يقنع البرلمان البريطانى بتخصيص اعتماد مالى للبحث عن أطلانطس، ونتيجة لهذه الحماسة البالغة خرج دونيللى من عزلته وامتهن القاء المحاضرات بنجاح تام كذلك، ثم توقف فجأة عن القاء المحاضرات وعاد إلى عزلته وكتاباته، وأخيراً دخل ميدان السياسة مرة أخرى فساهم فى تأسيس «الحزب الشعبى» ورشح نفسه مرتين بلا نجاح كنائب للرئيس فى بطاقة الحزب الشعبى، وقد مات هذا الرجل النشيط العصامى الذى علم نفسه بنفسه فى عام ١٩٠١ بعد أن أرسى الأساس المتين لعلم الأطلنطيولوچى الحديث.

لويس سبنس

وتبع دونيللى آخرون، كان من أبرزهم الميثولوچى الاسكتلندى لويس سبنس الذى كرس معظم جهوده للاهتمام بأمر القارة المفقودة، فأصدر مجلة عاشت فترة قصيرة أسماها «أطلانطس» كما وضع خمسة كتب فى الموضوع، ولم يحرز سبنس قدر الشهرة الشعبية التى أحرزها دونيللى، ولكن نظرياته وجدت ترحيباً كبيراً فى دوائر المهتمين بأمر أطلانطس، وحتى المتشككين منهم يقدرون القيمة العلمية لهذه النظريات. قال عنه سبراجو دى كامب انه «كاتب ممتاز وعاقل» ووصف كتابه الرئيسى «مشكلة أطلانطس» بأنه أفضل دفاع عن وجود أطلانطس نشر حتى تاريخه.

وقد حاول سبنس كما فعل دونيللى أن يتناول موضوعه تناولاً علمياً جاداً. وفى كتابه «مشكلة أطلانطس» الذى ظهر عام ١٩٢٤ ركز سبنس على اثبات أربع نقاط:

(١) انه كانت توجد فى العصور الچيولوچية القديمة قارة كبيرة تحتل كل أو معظم منطقة شمال المحيط الأطلسى وجزءاً كبيراً من حوضه الجنوبى وان هذه

القارة تعرضت فى الأزمنة الچيولوچية القديمة لكثير من التغييرات فى الحجم والمساحة بما فى ذلك انغمار اجزاء منها وظهور أجزاء أخرى.

(٢) فى عصر الميوسين (٢٥ ــ ١٠ ملايين سنة) كانت هذه القارة لا تزال تحتفظ بطابعها القارى، ولكن فى أواخر هذا العصر بدأت تتلاشى نتيجة لسلسلة متعاقبة من البراكين وغير ذلك من الأسباب.

(٣) ان هذه العملية أدت الى تكوين كتلات جزرية صغيرة أهمها اثنتان: الأولى على مسافة قريبة من مدخل البحر المتوسط وتسمى «أطلانطس» والثانية فى منطقة جزر الهند الغربية الحالية وتسمى «انتيليا»، وكانت الاتصالات بين هاتين الكتلتين ممكنة عبر سلسلة من الجزر الصغيرة.

(٤) كانت هاتان الكتلتان وسلسلة الجزر التى تصل بينهما قائمة حتى عصر البليستوسين، وفى هذه الحقبة [منذ حوالى ٢٥ ألف سنة أو بداية عصر ما بعد الجليد] تعرضت أطلانطس لمزيد من الانهيار حتى حدثت الكارثة الأخيرة منذ حوالى ١٠ آلاف سنة قبل الميلاد فغرقت نهائياً، أما الكتلة الأخرى «انتيليا» فقد استمرت إلى فترة أقرب ولا تزال بقاياها الآن هى مجموعة جزر الأنتيل أو جزر الهند الغربية.

ولا يتفق سبنس مع أفلاطون فى القول بأن أطلانطس تلاشت فى يوم وليلة بل يعتقد أن ذلك تم تدريجياً خلال سنوات طويلة، وكذلك لا يتفق مع دونيللى فى زعمه ان أطلانطس كانت المصدر الأول لكل الحضارات بل يقول ان حضارة أطلانطس كانت تنتمى إلى العصر الحجرى القديم ولم تعرف استخدام المعادن.

ويقول سبنس انه إذا كانت أطلانطس موجودة ومسكونة حتى الزمن الذى أعطاه أفلاطون وهو ١٠ آلاف سنة قبل الميلاد، فلا بد أن نجد شواهد عن الناجين منها فى أماكن أخرى من العالم، وهذا ما نجده فى ثلاثة أقوام من الأجناس البائدة هى انسان كرومانيون، وسكان منطقة الحزر القدماء، وحملة الحضارة الأزيلية. ويقتبس سبنس عن خبراء كثيرين ما يثبت أن هذه الأجناس الثلاثة لم تتطور فى المناطق التى عثر فيها على آثارها، بل تطورت فى أماكن أخرى، ولما كانت معظم المستوطنات الأولى لهذه الأجناس تقع فى المناطق الساحلية بجنوب

غربى فرنسا وشمالى اسبانيا فإن ذلك يدل على أنها جاءت من مكان آخر من الغرب غير موجود الآن ، ويمكن القول إنه أطلانطس .

والمعروف ان انسان كرومانيون ظهر لأول مرة فى أوربا فى نهاية العصر الجليدى منذ حوالى ٢٥ ألف سنة ، ويبدو انه هو الذى قضى على انسان نيانتردال الذى كان يسكن هذه المنطقة من قبل لأن الأول كان أكثر تفوقاً فى القوة البدنية والذكاء ، وقد ترك انسان كرومانيون رسوماً فى الكهوف تمتاز بأسلوبها الواقعى المدهش ومعظمها لحيوانات مختلفة منها الثور [قارن اهمية الثور فى حضارة أطلانطس] .

وقد استمر هذا الجنس مزدهراً حوالى ١٥ ألف سنة الى أن حلت محله غزوات الحزر والازيليين ، وطبقاً لما يقوله سبنس فقد جاء هذان الجنسان أيضاً من أطلانطس فى مراحل تالية من تاريخها العنيف ، وقد احتل الازيليون نفس المناطق الأوربية التى كان يحتلها سابقوهم الكرومانيون . واكتشف الأثريون شواهد على أنهم كانوا صيادين خلافاً لسابقيهم ، وانه كان فى امكانهم الصيد فى عرض البحر ، واستخلص سبنس من ذلك انه إذا كان الجسر البرى الذى يربط بين أطلانطس وأوربا والذى انتقل عبره الكرومانيون قد اختفى فان خلفاءهم الازيليين باعتبارهم ركاب بحر كان فى امكانهم استخدام القوارب فى الهرب من الكوارث المتلاحقة التى حاقت بقارتهم الأم .

والمعروف ان الحضارة الازيلية ظهرت فى أوربا حوالى عام ١٠ آلاف قبل الميلاد وهو نفس التاريخ الذى يعطيه أفلاطون لدمار أطلانطس ، ومما له دلالة ان الازيليين كانوا يجعلون وجهة دفناهم نحو الغرب ، أى نحو الجهة التى جاءوا منها حسب قول سبنس .

ويناقش سبنس أيضاً احتمال أن يكون الازيليون هم الذين أسسوا حضارة مصر وكريت ، كما أن حضارة المايا جاءت أيضاً من أطلانطس ، ويفسر سبنس الهوة الزمنية الكبيرة التى تفصل بين غرق أطلانطس حوالى ١٠ آلاف سنة قبل الميلاد وظهور حضارة المايا قبل العصر المسيحى بأن يكون لاجئو أطلانطس قد استقروا أولاً فى انتيليا أو جزر الأنتيل خلال هذه الفترة الطويلة قبل أن يلحق الدمار بهم إلى هناك فيضطرهم إلى الهجرة الأخيرة الى أمريكا الوسطى .

وقد تناول سبراجو دى كامب نظرية سبنس بالنقد كذلك بالرغم من امتداحه له، ويقول دى كامب اننا حتى لو ألزمنا أنفسنا بالحقائق التى يسوقها سبنس سوف نجد أنها أقل تأثيراً مما يبدو لأول وهلة، فمثلاً لم تكن حضارة كرومانيون قاصرة على الغرب الأوربى وانما عثر على أثارها أيضاً فى الشرق وخاصة فى فلسطين، كما أنه بالرغم من كل تأكيدات سبنس بأن حضارات مصر ويوكاتان وبيرو قد ظهرت إلى الوجود فجأة بدون تطور من أشكال حضارية أدنى إلا أن الأثريين المحدثين قد كشفوا عن تطور تدريجى بطىء لهذه الحضارات. ففى الامكان مثلاً تتبع الحضارة المصرية إلى شكلها البدائى الذى كانت عليه فى العصر الحجرى الحديث حيث كان انسان «مرمدة» يرتدى جلود الحيوان ويعيش فى أكواخ من الطين ويزرع بطريقة بدائية ثم أخذ المصريون يتطورون من هذا المستوى البدائى إلى المستوى الرفيع الذى بلغوه فى عصر بناة الأهرام وما بعده.

هل ظهرت اطلانطس ؟

ان أى بحث نظرى عن أطلانطس مهما كان مدعماً بالحجج والأسانيد لا بد أن يكون مليئاً بالثقوب، فالفيصل فى وجود أطلانطس هو العثور عليها بالفعل، وهذا ما بدأ يدعيه مؤخراً فريق من الباحثين.

ففى عام ١٩٦٨ أعلن اثنان من الطيارين المدنيين كانا يقومان برحلة جوية فوق جزر «بهاما» انهما شاهدا ما يشبه ابنية حجرية تبرز من المحيط بالقرب من سطح الماء عند شاطىء جزيرة «بيمين»، وقاما بتصوير هذه الأبنية من الجو، وعلى الفور تحمس الكثيرون لهذا النبأ باعتباره مصداقاً لنبوءة الوسيط الروحى الشهير ادجار سايس الذى تنبأ فى يونيو ١٩٤٠ بأن أجزاء من قارة أطلانطس الغارقة سوف تظهر فى عام ١٩٦٨ أو ١٩٦٩ وحدد سايس هذه الأجزاء بأنها من الطرف الغربى لاطلانطس المسمى «بوسيديا» وانه يقع بالقرب من جزر «بهاما»!.

وتلقف الباحث الأثرى دكتور تشارلس بيرليتز، وهو فى نفس الوقت غواص ماهر، هذا الخيط، وقام بعدة أبحاث تحت الماء فى هذه المنطقة وما يجاورها،

ووضع كتاباً بعنوان «سر أطلانطس» أكد فيه وجود أطلال كثيرة تحت الماء بالقرب من جزر الكاريبي بما فى ذلك مايبدو كأنه مدينة كبيرة غارقة بالقرب من جزيرة «هايتى» كما عثر على مايبدو كأنه طريق مرصوف بالأحجار فى أعماق المحيط شمالى جزيرة «بيمينى» مما يوحى بأن جزءاً من الجرف القارى فى المحيط الأطلسى والبحر الكاريبى كان يوماً أرضاً جافة وانه غرق فى وقت كانت فيه الحضارة البشرية قد ظهرت بالفعل.

ولكن ليس ثمة اجماع على أن مايبدو كأطلال تحت الماء هو حقاً من صنع الانسان. ففى رأى البعض ان طريق «بيمينى» ليس أكثر من صخور شاطىء تصادف اصطفافها على هذا النحو، ولكن دكتور بيرليتز وزميله دكتور مانسوت ڤالنتين وهو الغواص الذى اكتشف الطريق سارعا إلى تفنيد هذا الاعتراض. فكتب دكتور بيرليتز يقول: «ان صخور الشاطىء لا يمكن أن تشكل مكعبات ضخمة تتسق فيما بينها على هذا النحو، ولا يمكن أن تكون زواياها قائمة بمقدار ٩٠ درجة بالضبط، ولا يمكن أن توجد بينها مثل هذه الفجوات التى تبدو كممرات متعمدة، والأهم من ذلك جميعاً أن صخور الشاطىء «الطبيعية التى ترقد فى قاع المحيط ليس من المحتمل أن تعتمد على مثل هذه الأعمدة الصخرية التى تبدو قائمة بدقة من تحتها»!.

ومن بين المشاهدات الأخرى التى عثر عليها بالقرب من شاطىء «بيمينى» مايبدو كأنه جدران عمودية، وأقواس كبيرة، وأهرام أو قواعد أهرام تحت سطح البحر، كما صور الطيارون على بعد عشرة أميال من جزيرة اندروس، احدى جزر بهاما، مايبدو وكأنه دائرة ضخمة من الصخور القائمة تصلح كأساس لبناء عظيم، وعثر بالقرب من شواطىء يوكاتان وهندوراس على مايبدو كأنه طريق من صنع الانسان ممتد داخل البحر. كما عثر بالقرب من ڤنزويلا على سور طوله ١٠٠ ميل فى أعماق المحيط، ولكن الچيولوچيين أعلنوا أن كثيراً من هذه الموجودات يمكن أن تكون مكونات طبيعية، وقالوا ان «سور ڤنزويلا» أطول من أن يعتبر من صنع الانسان (وهذه نقطة مردود عليها بأن سور الصين العظيم يمتد علة آلاف من الأميال). ويقول برليتز أيضاً أن الروس أكتشفوا فى قاع البحر شمالى كوبا مجموعة من المبانى تغطى عشرة أفدنة، وان ماسحة المحيطات الفرنسية «أرشميد» شاهدت درجات سلم منحوتة فى الرصيف القارى شمالى بورتوريكو.

هل مثل هذه المكتشفات الحديثة تفيد فعلاً العثور على قارة أطلانطس تحت سطح المحيط الأطلسي؟ ان الحذر يقتضينا على الأقل الانتظار ريثما يتم فحصها بدقة حتى يبت فيما إذا كانت من صنع الطبيعة أم الإنسان، بل ان جزر منطقة الكاريبي نفسها يرى كثير من العلماء انها ظهرت من باطن الأرض نتيجة انفجارات بركانية وليست بقايا قارة غارقة.

وإلى أن يحسم العلماء هذه المسائل الخلافية دعنا نبحث عن أطلانطس في مكان آخر بعيد تماماً عن المحيط الأطلسي هو في رأى بعض علماء التاريخ والآثار جزيرة كريت بالتحديد.. حيث يقولون أن الحضارة المينوية الراقية الموغلة في القدم التي ظهرت في تلك الجزيرة ثم اختفت فجأة، ليست سوى حضارة أطلانطس التي تحدث عنها أفلاطون.



اجناتيوس دونيللى مؤلف كتاب «اطلانطس وعالم ما قبل الطوفان»

اطلانطس فى ايجا

حتى أوائل القرن الحالى ظل معظم المؤرخين يعدون جزيرة كريت بشرق البحر المتوسط غير ذات أهمية كبيرة فى تاريخ الحضارات القديمة. حقاً، كانت لدى الاغريق القدامى قصص وأساطير عديدة عن تلك الجزيرة الجبلية التى تقع على الحد الجنوبى لبحر ايجا، وكانوا ينظرون اليها على أنها كانت يوماً موطناً لشعب عظيم محب للأسفار البحرية يحكمه ملك يدعى «مينوس» وهو ابن زيوس من عذراء بشرية تدعى أوربا، وكانت لديهم أسطورة عن انسان آلى من البرونز له جسم انسان ورأس ثور يذرع شاطىء كريت الصخرى جيئة وذهاباً ليبعد عنها الغزاة بأن يلقى على سفنهم جلاميد من صخر الشاطىء، وكان هناك أيضاً قصر التيه (اللابيرنث) الذى حبس فيه الملك مينوس المينوتور، وهو وحش له جسد انسان ورأس ثور كان يفترس كل عام سبعة شبان وسبع فتيات من خيرة شباب اليونان يتم تقديمهم اليه كقرابين بشرية قبل أن يذبحه فى نهاية الأمر البطل الاغريقى ثيسيوس.. حقاً، كانت مثل هذه القصص والأساطير شائعة لدى الاغريق عن كريت، ولكن معظم المؤرخين كانوا يعتبرونها من ضروب الخيال.. إلى أن ثبت فيما بعد أن هذه القصص ربما كان لها فعلاً أساس من الواقع.

فى عام ١٩٠٠ أجرت بعثة أثرية بريطانية برئاسة سير آرثر ايڤانز حفائر فى جزيرة كريت.. وسرعان ما بدأت تظهر تحت معاول البعثة مبان وآثار عظيمة دلت على أن كريت شهدت حضارة راقية منذ حوالى ٤٥٠٠ سنة، وأسمى سير آرثر ايڤانز هذه الحضارة بالحضارة المينوية نسبة إلى الملك الأسطورى «مينوس».

ودلت اكتشافات سير آرثر ايفانز على أن أهل كريت كانوا سادة لكل الجزر فى بحر ايجا حين كان الاغريق ما زالوا شعب بربرياً متخلفاً، فقد كانوا تجاراً ومستعمرين يتلقون الجزية من الشعوب الأقل تقدماً منهم بما فيهم الاغريق فى أرض القارة، وطار صيتهم بعيداً إلى شمال أوربا وغربها، وجنوباً إلى مصر والشاطىء الشرقى للبحر المتوسط، واشتهروا بحبهم للأسفار، وثرائهم العريض، وفخامة حياتهم.

وكانت عاصمتهم كنوسوس، بالقرب من مدينة هيراكليون الحديثة، تقع على بعد ثلاثة أميال من شاطىء كريت الشمالى، وهى مدينة عظيمة كان يسكنها نحو ١٠٠ ألف نسمة حوالى عام ٢٥٠٠ ق. م. وفيها قصر كنوسوس مقر الملك والملكة ومركز الحكومة المينوية، وهذا القصر عبارة عن مجموعة من المبانى الرائعة تغطى ستة أفدنة ويضم ما لا يكاد يحصى من الغرف والقاعات والصالات والدهاليز بأروقتها ذات القباب المثلثة، وعمدانها الملونة، وشرفاتها الفسيحة. وكان القصر يقوم على مستويات مختلفة من الأرض وتربط بين أجزائه الممرات والسلالم والدهاليز الحلزونية. ويبدو أن مثل هذا البناء العجيب هو الذى أوحى للاغريق بقصص قصر التيه فى كريت، وكانت المخازن الضخمة بأسفل القصر مليئة بالحبوب والنبيذ والزيت، حيث نجد بعض الجرار فيه تتسع لنحو ٧٩ ألف جالون من زيت الزيتون وكان القصر أيضاً مركزاً دينياً وفنياً به غرف للكهنة والكاهنات ومعامل للفنانين وأرباب الحرف وهؤلاء كانوا يتمتعون بمركز محترم فى المجتمع المينوى، وكانت جدران القصر مزينة برسوم زاهية للطيور والوحوش والأزهار وكذلك صور لشبان وفتيات فى ملابس أنيقة.

وتدل الرسوم والأوانى الفخارية التى وجدت فى كنوسوس وغيرها من المواقع الأثرية فى كريت على ولع أبناء الحضارة المينوية بالألوان والأشكال الرقيقة، كما تدل على ملاحظتهم الجادة للطبيعة وحبهم الشديد للحياة. وتسجل رسومهم مناظر الرقص والمآدب والاحتفالات والرياضة والحيوانات أكثر مما تسجل مناظر الحرب والقتال والحصار. وفى كل مكان يبدو اهتمامهم بالثور واضحاً، فعلى سطوح « الفازات » وقطع الخزف نجد رسوماً لشبان غير مسلحين يقفزون فوق ظهور الثيران أو يتعلقون بقرونها وهم يؤدون حركات بهلوانية، وعثر على آنية قرابين على هيئة



رسم متخيّل لما كانت عليه إحدى القاعات الفخمة بقصر «كنوسوس» أيام مجد الحضارة المينوية

رأس ثور له قرون ذهبية، ومن الكنوز الأخرى التى كشفت عنها التنقيبات نجد حلياً ذهبياً ومجوهرات وأدوات زينة مطعمة بالذهب والعاج تشهد كلها بدرجة الثراء الواسع الذى كان يتمتع به المينويون.

ولم يكن المينويون يحيون فى منازل جميلة فحسب وإنما كانوا يتمتعون أيضاً بوسائل للراحة لا يكاد يكون لها مثيل حتى العصور الحديثة، فكان قصر كنوسوس مزوداً بالمراحيض ذات المياه المتدفقة، ومواسير المياه الجارية، وشبكة لصرف مياه الأمطار والمجارى، وكانت حجراته مزودة بنوافذ تفتح على مناور لادخال الضوء، وتحيط بالقصر مدينة تبلغ مساحتها ٢٢ فداناً تضم منازل قباطنة البحر، والتجار، وأصحاب السفن. ويخترق المدينة شارع مرصوف له مصارف للماء على جانبيه، ويمتد من كنوسوس إلى الشاطىء الجنوبى حيث تقوم مدينة عظيمة أخرى تسمى «فايستوس»، بينما تنتثر فى أنحاء الجزيرة حوالى ١٠٠ مدينة صغيرة على درجة عالية أيضاً من التنسيق والنظافة. ودلت الأبحاث الأثرية على أن حضارة كريت أزدهرت زهاء ألفى عام متواصلة ولكنها انهارت فجأة واختفت من الوجود حوالى عام ١٥٠٠ أو ١٤٠٠ ق.م.

تشابه كريت وأطلانطس

ها نحن لأول مرة نجد شاهداً على وجود شعب يشبه شعب أطلانطس الذى تحدث عنه أفلاطون، ولم يمضى وقت طويل بعد اكتشافات ايڤانز حتى بدأ بعض الباحثين يتساءلون عما إذا كانت ذكريات هذه الحضارة المينوية هى التى أوحت بأسطورة أطلانطس.. فكل من أطلانطس وكريت كانت مملكة فى جزيرة وقوة بحرية واسعة النطاق، وكل منهما أيضاً لقيت نهاية مفاجئة، ويبدو أن ثمة تشابهاً واضحاً كذلك بين حفلات الرقص على الثيران التى يصورها الفن المينوى وبين مراسم صيد الثيران التى تحدث عنها أفلاطون بصدد أطلانطس.

وكان أول من أشار إلى وجود أوجه تشابه بين أطلانطس أفلاطون والحضارة المينوية هو البروفيسور ك. ت. فروست أستاذ التاريخ القديم بجامعة الملكة (كوينز يونيڤرستى) ببلفاست، فقد كتب البروفيسور بروست مقالاً فى صحيفة «التايمز» اللندنية فى عام ١٩٠٩ أى بعد سنوات قلائل من اكتشافات سير ايڤانز أوضح فيه

الحاجة إلى اعادة كتابة تاريخ البحر المتوسط القديم فى ضوء اكتشافات كريت، وأضاف قائلاً: «ان الوصف العام لأطلانطس كما قدمه أفلاطون فى محاورتيه «تيماوس» و«كريتياس» له مشابهات قوية فى الحضارة المينوية إلى حد القول بأن أفلاطون نفسه لم يكن فى وسعه اختراع كل هذه الحقائق المتشابهة».

ويدلل فروست على نظريته قائلاً: «ان حديث أفلاطون عن الميناء العظيم بسفنه وتجاره القادمين من كل الأنحاء، والحمامات القشيبة، والملعب الرياضى، ومراسم التضحية بالثيران، كل ذلك نجد مايشابهه فى الحضارة المينوية، ولكن عندما نقرأ عن طريقة اصطياد الثيران فى معبد بوسيدون بدون استخدام الأسلحة وإنما بالعصى والحبال فحسب نجد أنفسنا ازاء وصف دقيق لحلقات الرقص على الثيران فى كنوسوس، وهذا هو الشىء الذى كان يلفت نظر زائرى كريت أكثر من غيره وأدى الى ظهور أسطورة المينوطورس.. ان كلمات أفلاطون تكاد تصف بدقة متناهية المناظر التى نجدها مصورة على الأوانى الأثرية الكريتية والتى تمثل مطاردة الثيران والامساك بها بطريقة تختلف عن صيد الثيران فى أى مكان آخر فيما يتعلق بنقطة هامة أكدها أفلاطون فى حديثه عن أطلانطس وهى عدم استخدام الأسلحة».

ولكن كريت ليست فى المحيط الأطلسى، وليست فى حجم الجزيرة القارة التى وصفها أفلاطون، ولم تختف تحت أمواج البحر.. فكيف يتسنى إذن القول بأنهما قد تكونان شيئاً واحداً؟.

لقد حاول فروست أن يفسر اختفاء الحضارة المينوية المفاجىء بأن انقطاع الاتصال بطريقة مفاجئة بين تجار كريت وشركائهم المصريين نتيجة لتعرض كريت لغزوات من بلاد اليونان جعل المصريين يعتقدون ان كريت لابد أن تكون قد غرقت تحت سطح البحر! ولكن الدوائر العلمية رفضت هذا التفسير، وسرعان ما رفضت نظرية فروست بأكملها، وما لبث أن نسى كل شىء عنها بعد وفاته أثناء الحرب العالمية الأولى.

ولكن بعد ثلاثين عاماً، انبرى البروفيسور سبيريدون مارينا توس ـ الذى أصبح فيما بعد مديراً عاماً لمصلحة الآثار اليونانية ـ بتقديم أدلة جديدة تؤيد نظرية فروست، إذ نشر فى صحيفة الآثار البريطانية فى عام ١٩٣٩ مقالاً بعنوان «الدمار البركانى للحضارة المينوية فى كريت» أوضح فيه انه خلال تنقيباته فى امينسوس، وهو موقع ميناء قديم مجاور لكنوسوس، اكتشف حفرة مليئة بالخفاف البركانى كما وجد أيضاً دلائل على أن أمواجاً عاتية طغت على الموقع واكتسحت فى تراجعها أشياء ضخمة من أماكنها الأصلية، وأعرب مارينا توس عن اعتقاده بأن انهيار كريت لم يكن بسبب غزاة أتوا من الخارج ـ كما كان يعتقد معظم المؤرخين عندئذ ـ وإنما يرجع إلى كارثة طبيعية عنيفة حلت بالجزيرة، وأشار إلى احتمال أن يكون مصدر هذا الخراب هو الجزيرة البركانية الصغيرة المسماة «ثيرا» والتى تبعد ٧٥ ميلاً شمالى كريت وهى أقصى الجزر إلى الجنوب فى أرخبيل سيكلاديس.

فما هى جزيرة «ثيرا» هذه؟

كانت هذه الجزيرة فى الماضى مستديرة الشكل، يبلغ محيطها حوالى ١١ ميلاً، ذات قمم صغيرة مدببة وتنمو فيها الأشجار والمزروعات الجيدة، أما فى الحاضر فقد ذهب هذا الرونق القديم، وأصبحت ثيرا ممزقة إلى ثلاثة أجزاء أكبرها على شكل هلال وهى لاتزال تحمل اسم «ثيرا» ويسكنها حالياً حوالى ٥٠٠٠ شخص، ثم جزيرة أصغر تسمى «تيراسيا» تقع إلى الشمال الغربى وتوجد بها حالياً قريتان فحسب يسكنهما عدة مئات من الأشخاص، والجزء الثالث يسمى «أسبرونيسى» وهو شظية أرضية غير مسكونة. ولكن من يرى هذه الأجزاء الثلاثة من الجو يستطيع أن يلمح بوضوح كيف كانت جميعاً فى الماضى جزيرة واحدة مستديرة، كل ما فى الأمر أن المنطقة الوسطى فيها أصبحت الآن خليجاً عميقاً بين الجزر الثلاث. كما يستطيع أن يلاحظ وجود جبال عالية مطلة على الحافة الداخلية للجزر الثلاث وهى جبال شديدة الانحدار أو تكاد تكون عمودية كما لو كانت قد قطعت بسكين ضخمة، وفى وسط الخليج الذى يتوسط الجزر

الثلاث تبرز قبة سوداء تعلوها فوهة بركان تذكر من يراها فوراً بأن «ثيرا» كانت يوماً هي البركان النشيط الوحيد في بحر ايجا.

يقول علماء الجيولوجيا انه من المحتمل ان يكون للجزيرة تاريخ طويل جداً من الاضطرابات البركانية، ولكن من المؤكد ان الانفجار الذى مزق وسط الجزيرة كان أقوى انفجار بركاني معروف في العالم، وقد بدأ باندفاع الخفاف البركاني الذى أدى إلى تراكم أكوام ترتفع إلى ١٢ قدماً في بعض أجزاء الجزيرة. ثم حدث فيما يبدو انقطاع أو فترة خمود تلاها انفجار عنيف أدى إلى تغطية الجزيرة كلها ومنطقة واسعة حولها بطبقة سميكة من الرماد الأبيض يسمى «تيفرا» ويصل ارتفاع هذه التيفرا في بعض أنحاء الجزيرة إلى ٢٠٠ قدم، وعندما انبثقت هذه المادة من جوف الأرض تحت البحر انهار على الفور سطح القشرة الأرضية في هذا المكان وهو جزيرة ثيرا وسقط جزء منها في البحر مكوناً بذلك الخليج الأوسط الذى يعرفه العلماء باسم «كالديرا».

بركان كراكاتوا

ان أحداً بالطبع لم يشاهد ما حدث في ثيرا، ولكن في امكاننا أن نكون فكرة عما حدث فيها من وصف شهود عيان لحادث مماثل وقع سنة ١٨٨٣، ففي مايو من ذلك العام بدأ بركان «كراكاتوا» ـــ وهو بركان من طراز بركان ثيرا ـــ يطلق الحمم. وكراكاتوا جزيرة صغيرة تقع في مضيق «سوندا» الذى يفصل بين جاوه وسومطرة في جنوب شرقي آسيا، وهو مجاور للطريق البحرى الرئيسي بين بحر الصين والمحيط الهندى، ولذلك كانت هناك بعض السفن على مقربة منه عند حدوث الانفجار البركاني، وأعطى ملاحو هذه السفن فيما بعد وصف شاهد عيان لما حدث.

لم تكن جزيرة «كراكاتوا» مسكونة، فهي جزيرة بركانية قاحلة غير صالحة للسكنى، ولكن بركانها ظل خامداً حوالي مائتي سنة قبل أن ينفجر عام ١٨٨٣ بعد ست أو سبع سنوات من الزلازل العنيفة ففي يوم ٢٠ مايو ١٨٨٣ بدأ البركان في احداث فرقعات هزت النوافذ والأبواب على مسافة ١٠٠ ميل، وبعد ذلك

بيومين شوهد عمود من الغبار والغاز يتصاعد من فوهة البركان الى ارتفاع قدر بسبعة أميال ، وتساقط الغبار على مسافة تبعد ٣٠٠ ميل ، ووجد المشاهدون الذين زاروا الجزيرة بعد أسبوع أنها مغطاة بطبقة رقيقة من الرماد الأبيض وان الأشجار جردت من أوراقها وأغصانها بفعل تساقط الخفاف البركانى ، واستمر النشاط البركانى خلال شهرى يونيو ويوليو وأوائل أغسطس حيث ذكر زائر آخر لجزيرة كراكاتوا ان كل النباتات في الجزيرة قد دمرت تماماً ، ثم جاءت الذروة فى يومى ٢٦ و٢٧ أغسطس ، وبدأت بتصاعد سحابة من الدخان الأسود المتموج إلى ارتفاع ١٧ ميلاً ، وحدثت انفجارات قوية سمعت فى كل أنحاء جاوة ، وأثناء الليل يوم ٢٦ أغسطس شاهد بحارة السفينة « تشارلس بال » الذين كانوا يبحرون على مسافة ١٥ ميلاً شرقي كراكاتوا « كرات من اللهب الأبيض » تتساقط على حافة الجزيرة ، وأصبح الهواء ساخناً خانقاً معبقاً برائحة الكبريت وأخذت السماء « تتحول خلال لحظات من السواد الكثيف إلى وهج النار» وطوال الليل استمر هدير البركان من الشدة بحيث حرم سكان غرب جاوة من النوم ، وهدأ البركان هنيهة عند الفجر، ولكن فى الصباح الباكر يوم ٢٧ حدثت أربعة انفجارات متتالية بالغة العنف وبخاصة الانفجار الثالث منها الذى سمع فى جزيرة « رودريجويز» على بعد ٣٠٠٠ ميل ، وربما كان أقوى صوت سجل فى تاريخ الأرض ــ وارتفعت سحابة من الدخان إلى مسافة ٥٠ ميلاً ناشرة محتوياتها عبر منطقة شاسعة من المحيط الهندى ، وقدر الخبراء ان بركان كراكاتوا لفظ من أحشائه حوالى خمسة أميال مكعبة من الحمم سقط ثلثاها فى مجال محيطه عشرة أميال مما أدى إلى تكوين أكوام من « التيفرا» البيضاء بلغ ارتفاع بعضها ١٨٥ قدماً فى أجزاء الجزيرة التى نجت من الدمار، أما باقى المواد الملفوظة فقد حملها الهواء بعيداً حتى باندونج على بعد ١٥٠ ميلاً فى نفس اليوم ، واستمرت الرياح القوية المشبعة بالتراب البركانى تهب ١٢ يوماً بعد ذلك حتى مسافة ٣٣٠٠٠ ميل .

حطمت موجات الصدمة المنبعثة من الانفجار الثالث الكبير النوافذ والجدران على مسافة ١٠٠ ميل وأمكن تسجيلها فى جميع أنحاء الكرة الأرضية ، ولكن موجة المد التى حدثت فى البحار والمحيطات كانت أقوى تخريباً ، فقد أغرقت ودمرت ٣٠٠ مدينة وقرية فى المناطق المجاورة لمضيق « سوندا » وأدت إلى مقتل أكثر من ٣٦ ألف شخص تحت عنف الأمواج التى اجتاحت مساكنهم ، كما ارتفع المد على

شواطىء تبعد ٧٠٠٠ميل عن مكان الانفجار بل وقد وصل ارتفاع المد بدرجة طفيفة إلى القنال الانجليزى، وحملت مياه البحر الخفاف البركانى إلى آلاف الأميال المربعة وامتلأ بها المحيط الهندى لمدة عدة أشهر بعد الانفجار، وظل الناس فى مختلف أنحاء العالم لعدة أشهر أيضاً يرون تلك الظاهرة الغريبة الناجمة عن ارتفاع الغبار إلى طبقات الجو العليا حيث كانت الشمس تشرق خضراء اللون ثم تتحول إلى اللون الأزرق، والقمر يبدو أخضر أو أزرق، وغروب الشمس يخلف وهجاً شديداً فى السماء.

وعندما تجرأ الزائرون على زيارة الجزيرة بعد هذه الكارثة الكبرى وجدوا أن الجزء الشمالى من كراكاتوا قد سقط تحت سطح البحر خالقاً خليجاً أو «كالديرا» على النحو المشاهد فى «ثيرا» كما تمزق باقى الجزيرة إلى قسمين.

والآن، إذا حاولنا المقارنة بين انفجار «ثيرا» بالقرب من كريت وانفجار كراكاتوا، فاننا نجد أن «الكالديرا» أو الخليج المتخلف عن انفجار ثيرا أعمق من ذلك المتخلف عن انفجار كراكاتوا كما أن مساحة سطحه تبلغ أربعة أضعاف مساحة سطح الثانى، وبالرغم من أن ذلك لا يعنى بالضرورة ان انفجار ثيرا كان أقوى بمقدار أربعة أضعاف من انفجار كراكاتوا إلا أن تركيب الخليج وأكوام الخفاف فى ثيرا تؤكد أن انفجار ثيرا كان على الأقل فى عنف انفجار كراكاتوا ان لم يكن أكثر منه عنفاً وتدميراً.

متى وقع انفجار ثيرا ؟

عندما يمتزج الخفاف البركانى بالحجر الجيرى ينتج نوع من الأسمنت القوى، وهذا ما حدث فى ثيرا وبالتحديد فى جزيرة «ثيراسيا» التى أخذت منها خلال ستينات القرن الماضى كميات ضخمة من الأسمنت لبناء قناة السويس ومدينة بورسعيد فى مصر، وأثناء العمل فى أخذ الأسمنت وجد المهندسون انهم وصلوا فى الحفر الى كتل صخرية فى أسفل طبقات الركام البركانى، كانت هذه هى قمم الأسوار القديمة التى دفنت تحت الركام أثناء ثورة البركان، وكان من الممكن أن يدمرها المهندسون فى تنقيبهم عن مزيد من الأسمنت لولا أن منعهم من ذلك

حدوث انفجار بركاني جديد في عام ١٨٦٦ فأرغمهم على التوقف ، وبعد أن هدأ البركان وصل إلى الجزيرة فريق من العلماء لبحث آثاره ، وهؤلاء عثروا على الأسوار القديمة التي لفتت أنظار علماء الآثار الفرنسيين ، فوصل إلى الجزيرة فريق منهم برئاسة فرديناند فوكيه واستطاعوا اكتشاف جزء من مستوطنة صغيرة يعود تاريخها إلى عصر البرونز في اكروتيري شمال شرقي ثيراسيا . وهكذا كان فوكيه هو أول من قدم أدلة على أن « ثيرا » تعرضت لانفجار بركاني أثناء عصر البرونز أي فيما بين عامي ٣٠٠٠ و١٠٠٠ ق . م .

جاءت اكتشافات فوكيه قبل أن يكتشف سير آرثر ايفانز عظمة الحضارة المينوية في كريت ، ولذا فإن أحداً لم يفطن إلى دلالة اكتشافات فوكيه قبل مضي قرن كامل من الزمان حين بدأ البروفيسور مارينا توس تنقيباته الهامة في اكروتيري . وفي عام ١٩٥٦ حدث في الجزيرة زلزال قوي أدى إلى تمزيق أرضية محجر في الجزيرة الرئيسية « ثيرا » فانكشفت بذلك أطلال مبان قديمة وعظام بشرية وأسنان وأخشاب محترقة ، وقد قام العالم اليوناني دكتور انجليوس جالا نوبولس بالكشف على هذه المخلفات بطريقة الكربون ــ ١٤ المشع ، فوجد أن عمرها يبلغ حوالي ٣٥٠٠ سنة ، وأجريت اختبارات اضافية في عام ١٩٦٧ على مجموعة من الأشياء المختلفة التي وجدت في ثيرا دلت على أن البركان حدث في وقت ما بين عامي ١٥٠٠ و١٤٥٠ ق . م . وهذا التاريخ يتفق مع الفترة التي انهارت فيها الحضارة المينوية فجأة .

يقول البروفيسور حـ . ف . لوتشي في كتابه « نهاية أطلانطس » وهو دراسة علمية حديثة عن القارة المفقودة « أننا لا نعلم ماذا حدث في كريت وفي الجزر والشواطىء الموجودة في بحر ايجا ، ولكنني أعتقد انه ليس مما يجافي المنطق أن الخسائر في الأرواح والممتلكات نتيجة لبركان ثيرا لم تكن أقل ان لم تكن أكبر من خسائر بركان كراكاتوا . ومن ناحية أخرى ، يمكننا القول بثقة لها ما يبررها ان كريت توقفت عن أن تكون قوة بحرية عظيمة في أواسط القرن ١٥ ق . م . أليس من المعقول إذن أن نفترض ان انفجار ثيرا كان عاملاً مؤثراً في سقوطها ؟ » .

وقد أثبتت الاكتشافات الأثرية فيما بعد صحة هذا الافتراض ، وثبت يقيناً أن الحضارة المينوية التي كانت قائمة في كريت والجزر المجاورة قد انهارت نتيجة

انفجار بركان ثيرا حوالى عام ١٥٠٠ ق.م. وانتقلت بالتالى مقاليد القوة من أهل كريت إلى مكان الشاطىء اليونانى حيث بدأت حضارة «ميسينا» فى الظهور.

عودة إلى أطلانطس

ويعتقد لوتشى وعدد آخر من العلماء الذين فحصوا آثار ثيرا وكريت أن قصة أفلاطون عن أطلانطس لم تكن إلا صدى لسقوط الحضارة المينوية، وان «اختفاء» أطلانطس هو فى حقيقته ضياع مقاليد القوة من أيدى الكريتيين بعد الكوارث الطبيعية التى حلت بجزيرتهم الصغيرة، ومع ذلك فإن لوتشى يرفض فكرة البحث عن أطلانطس تحت مياه خليج ثيرا، ويقول: «بالنسبة لى ان اختفاء أطلانطس عبارة عن مغزى تاريخى وليس حقيقة جغرافية».

ولكن علماء آخرين حاولوا تفسير أسطورة أفلاطون على أنها تعنى كريت حرفياً، ومنهم العالم اليونانى دكتور انجليوس جالا نوبولس الذى يقول ان أفلاطون يشير إلى جزيرتين، الكبيرة منهما هى المقر الملكى فى كريت، والصغيرة هى المركز الدينى فى ثيرا، ويقول أفلاطون ان مدينة أطلانطس يبلغ محيطها ١١ ميلاً وهذا بالضبط هو أيضاً حجم ثيرا. غير ان جالا نوبولس لم يلبث أن صادفته بعض الصعاب، إذ وجد أن بعض القياسات لا تتفق بين أطلانطس الكبيرة وكريت الصغيرة، فأفلاطون يقول مثلاً ان أطلانطس كانت قارة ضخمة وليست كذلك ثيرا أو كريت، ولكن هذه العقبة لم تفت فى عضد جالا نوبولس، فقد لاحظ أن كل المقاسات فى رواية أفلاطون التى تتجاوز رقم ١٠٠٠ إذا قسمت على ١٠ فأنها تتفق مع مقاييس الحضارة المينوية، من حيث المساحة والسكان وغير ذلك، وعلى ذلك يقترح جالا نوبولس انه لا بد أن كانت هناك «غلطة عشرية» قد زحفت على قصة أطلانطس كما رواها أفلاطون، سواء كانت هذه الغلطة من جانب الكهنة المصريين الذين رووا القصة لصولون أو جاءت بعد ذلك نتيجة لتناقل القصة شفاهة من صولون حتى وصلت إلى أفلاطون، فربما حدث سواء فى تسجيل الوثائق المصرية أو الوثائق اليونانية أن اخطىء الرمز الحسابى ١٠٠ وسجل على انه ١٠٠٠، وهناك مثل معاصر لهذا النوع من الأخطاء هو ما بين البليون الأمريكى الذى يساوى ألف مليون والبليون الانجليزى الذى يساوى مليون مليون.

هذا الخطأ إذا كان قد حدث فعلاً فانه لايفسر فحسب حجم أطلانطس وعدد سكانها وإنما يفسر أيضاً تاريخ دمارها، فإذا ألغينا الصفر الأخير من أرقام أفلاطون نجد أن تاريخ غرق أطلانطس يتفق مع تاريخ انفجار بركان ثيرا وانهيار الحضارة المينوية فبدلاً من أن يكون ٩٠٠٠ سنة قبل زيارة صولون لمصر يصبح ٩٠٠ سنة فقط، فإذا عرفنا أن رحلة صولون لمصر حدثت حوالى عام ٦٠٠ ق.م. يكون معنى ذلك أن دمار أطلانطس وقع حوالى عام ١٥٠٠ ق.م. وهذا يتفق مع تاريخ أنفجار بركان ثيرا وسقوط حضارة كريت.

ولكن ذلك لايقضى على كل العقبات التى تعترض نظرية «أطلانطس فى بحر ايجا»، فإذا كانت أطلانطس هناك حقاً فلماذا يضعها أفلاطون بعيداً فى المحيط الأطلسى؟ وإذا كانت أطلانطس قد غرقت على مقربة وثيقة من الشاطىء الأغريقى فلماذا يجهل الاغريق خبرها ويتلمسونه لدى المصريين؟.

يقول مؤيدو النظرية ان مثل هذه العقبات من الممكن ازاحتها أيضاً.. ان كل ما قاله أفلاطون عن موقع أطلانطس أنها «تقع خلف أعمدة هرقل» ولذا فإن قراءه أنفسهم هم الذين سارعوا إلى افتراض ان أطلانطس تقع فى المحيط الأطلسى على أعتبار ان أعمدة هرقل تعبير كان يطلق على مضيق جبل طارق فى زمن أفلاطون غير أن تعبير «أعمدة هرقل» ـ كما يقول دكتور جالا نوبولس ـ كان يطلق أيضاً على جبلين يقعان على الشاطىء الجنوبى لبلاد اليونان (ميسينا القديمة) فى مواجهة كريت، فإذا كانت قصة أفلاطون تشير إلى هذين الجبلين يصبح من المؤكد تقريباً ان المينويين هم أنفسهم أهل أطلانطس.

وقد دلت الاكتشافات الأثرية على أن الحضارة المينوية أخذت فى أخريات أيامها تكتسب خصائص يونانية ميسينية واضحة مما يدل على أن الكريتيين بدأوا يفقدون سيطرتهم على بحر ايجا، ومن المحتمل ان كانت هناك خصومة بينهم وبين الميسينيين مثل تلك التى أشار أفلاطون إلى وجودها بين الأثينيين والأطلانطسيين، وسواء كان الميسينيون قد غزوا أجزاء من كريت بالفعل أو أن الحضارتين قد تعايشتا سلمياً فإن اكتشافات كنوسوس دلت على انه بعد سقوط كريت أخذ الميسينيون مكانهم كقوة كبرى فى بحر ايجا وربما يكون الميسينيون قد احتلوا بالفعل

قصر كنوسوس الذى رغم دماره فى البركان نجا بشكل عام لأنه كان فى الجزيرة الرئيسية كريت.

وعلى أية حال، فقد كان الاغريق حينئذ شعباً صغيراً يحبو فى طفولته ولا يستطيع أن يذكر تاريخ هذه الأحداث بوضوح فإن ذاكرة الاغريق التاريخية تبدأ على أقصى تقدير بالقرن الثالث عشر قبل الميلاد تحت قيادة ميسينا التى أصبحت قوة كبرى فى شرق البحر المتوسط، بل ان أيام ميسينا نفسها لايكاد يذكرها الاغريق بوضوح، أما المصريون فكانوا حينئذ شعباً قديماً وكانوا يتاجرون منذ أمد طويل مع أهل كريت ويسجلون زياراتهم لمصر، ولذا فليس هناك مايبعث على الدهشة إذا افترضنا أن المصريين كانوا يعرفون عن أسلاف الاغريق أكثر مما يعرف هؤلاء عن أسلافهم.

ونستمع إلى الكهنة المصريين وهم يقولون لصولون حسب رواية أفلاطون:

«أنتم أيها الاغريق شعب محدث.. انكم تذكرون طوفاناً واحداً والحقيقة انه كان هناك الكثير من الطوفانات، وأنتم لا تعرفون أن أحسن وأرق شعب بشرى كان يعيش يوماً فى بلادكم وانك أنت (يا صولون) ومواطنوك ربما تكونوا من أحفاد الناجين القلائل الذين بقوا على قيد الحياة من هذا الشعب، ولكنكم لاتعرفون شيئاً عن ذلك بسبب مرور أجيال كثيرة عليكم نسيتم فيها الكتابة».

وفى رأى بعض العلماء أن العبارة الأخيرة فى الفقرة السابقة تحمل دليلاً جديداً يؤكد نظرية «أطلانطس فى ايجا» كما يؤكد المصدر المصرى للقصة، فالكهنة المصريون يشيرون هنا فى الغالب إلى «ثغرة الأمية» التى حدثت فى بلاد اليونان خلال الألف الثانى قبل الميلاد، فقد كانت هناك طريقة قديمة للكتابة مستخدمة فى كريت وبلاد اليونان وجزر بحر ايجا ولكنها اختفت من الاستخدام بعد عام ١٢٠٠ ق.م. ولم يظهر بديل لها حتى حوالى عام ٨٥٠ ق.م. حين أخذت الأشكال الأدنى للكتابة الاغريقية العتيقة فى الظهور. وعلى ذلك فانه حتى إذا كانت هناك سجلات محلية عن انفجار ثيرا وسقوط كريت فانها كانت مكتوبة بلغة لا يستطيع الاغريق فى عهد أفلاطون قراءتها.

* * *

ان عدداً كبيراً من الباحثين على استعداد الآن لقبول نظرية «أطلانطس فى ايجا» ويزعمون أن قصة أفلاطون لم تكن مؤسسة على حقائق تاريخية فحسب وإنما هى تكاد تكون تسجيلاً دقيقاً يبعث على الدهشة لأحداث وقعت قبل عصره بألف سنة ويعتقد البروفيسور جالا نوبولس ان ثيرا كانت فى أهمية كريت أو أكثر بالنسبة للمينويين، فقد كانت هى المدينة المقدسة أو مركز الحضارة المينوية أما كريت فهى المجال الحضارى الملحق بها. ويتصور جالا نوبولس ان سفوح هذه الجزيرة الصغيرة التى يغطيها حالياً الركام البركانى كانت يوماً تضج بالحياة وبالقصور والمعابد العظيمة على نحو يعادل أو يفوق مظاهر الحضارة فى كريت نفسها، وعندما ثار البركان دفنت كل هذه المبانى الرائعة تحت وابل الحمم ثم غرقت تحت سطح البحر فيما يسمى الآن بالكالديرا أو حوض ثيرا، وقد حدث ذلك فجأة بين يوم وليلة على النحو الذى رواه أفلاطون عن أطلانطس نقلاً عن كهنة سايس المصريين.

غير أن نظرية «أطلانطس فى ايجا» بالرغم من أدلتها القوية لا تزال تفتقر إلى الدليل الحاسم وهو أن يعثر بالفعل تحت مياه حوض ثيرا على بقايا من عمائر الحضارة المينوية الغارقة، وقد بدأت مؤخراً بعض الجهود فى هذا الشأن، وحصل غواص فرنسى مستكشف يدعى چاك كوستو على تصريح بالغوص فى هذا المكان للبحث عن الآثار وتصويرها فى فيلم تليفزيونى، وهو يستخدم سفينة أبحاث مزودة بجهازى رادار يستطيع كل منهما مسح منطقة عرضها ٤٠٠ ياردة على كل من جانبى السفينة وقد ذكر كوستو أن أبحاثه الأولية دلت على وجود «شيء ما» تحت خليج ثيرا وانه مصمم على معرفة ماذا يكون هذا الشيء.

* * *

وإلى أن يعثر على مثل هذا الدليل الحاسم لا يمكن القول بأن لغز أطلانطس قد صادفه الحل.

ولكن يظل مغزى هلاك أطلانطس موحياً.. ان الحضارات المادية العظيمة بما فيها حضارتنا المعاصرة يمكن أن تبيد بين ليلة وضحاها، فلا يمنعها عاصم من

غضب الله وهذا ما أشار اليه القرآن الكريم فى أكثر من موضع ولا سيما فى الحديث عن حضارة عاد التى لقيت نفس المصير..

(ألم تر كيف فعل ربك بعاد. إرم ذات العماد. التى لم يخلق مثلها فى البلاد).

صدق الله العظيم

ديلمون
حضارة قديمة في الخليج العربي

ديلمون : فى الأساطير السومرية والبابلية

لم يكن الربط بين اسم ديلمون القديمة والبحرين الحديثة أمراً سهلاً.. حقاً لقد عرف علماء الاشوريات فى القرن الماضى أن هناك مكاناً يسمى «ديلمون» يتمتع بأهمية خاصة فى الأساطير السومرية والبابلية القديمة وفى التاريخ السياسى لشعوب ما بين النهرين إلى حد ما، ولكن ما حقيقة هذا الاسم، هل هو مكان اسطورى أم مكان حقيقى؟ وإذا كان مكاناً حقيقياً كما هو الأرجح فاين يقع؟ ان أقصى ما كانت تفيده الوثائق القديمة أن ديلمون مملكة تقع إلى الجنوب من بابل.

ولم يهتم علماء الأشوريات فى القرن الماضى اهتماماً جدياً بالبحث عن مكان ديلمون أو التحقق من وجودها. فقد كانت هذه المسألة تبدو لهم ذات أهمية ثانوية بالنسبة للمسائل الخطيرة الأخرى التى بدأت تثيرها الاكتشافات الرائعة المتوالية فى بلاد ما بين النهرين والتى جعلت أذهان العلماء تنصرف تماماً الى اكتشاف تلك الحضارات القديمة التى قامت تباعاً فى المنطقة وكانت إلى جانب الحضارة المصرية المزدهرة على ضفاف النيل بمثابة لبنات الأساس للتاريخ العالمى كله، فلماذا يشغل هؤلاء العلماء أنفسهم إذن بالبحث عن حقيقة اسم ورد بصفة عابرة فى بعض النقوش أو السجلات الثانوية فى الوقت الذى تنتظرهم تلال من الوثائق المكتشفة فى حاجة إلى البحث والتفسير والتمحيص؟.

وهكذا ظلت حقيقة ديلمون مجهولة على الرغم من معرفة اسمها بالفعل، وعندما ربط العلماء بين ديلمون والبحرين كان ذلك فى حد ذاته اكتشافاً مثيراً

أشبه بفك غوامض لغز مثير في علم الآثار، وعوضهم الكشف الجديد بأثمن مما بذل فيه من جهد، إذ انهم انتشلوا حضارة ضائعة ظلت حوالى ألفى عام على أقل تقدير واحدة من أروع حضارات العالم القديم.

ديلمون فى النقوش القديمة

ولكن قبل أن نصل إلى هذه القصة لابد من إشارة سريعة إلى بعض النقوش البابلية والأشورية التى ورد بها اسم ديلمون والتى كانت بمثابة علامات الطريق فى التقدم نحو هذا الكشف المثير.

فى عام ١٨٦١ اكتشف العلماء فى أطلال قصر الملك آشور ـ بانيبال الذى حكم مملكة آشور فى القرن السابع قبل الميلاد مكتبة سليمة تضم آلافاً من الألواح الطينية المكتوبة بالخط المسمارى. كانت المكتبة تحوى ثروة ضخمة من المعلومات فى مختلف الميادين منها قوائم بأسماء مدن وأقاليم وآلهة، وأجزاء من قصائد وأساطير، وقواميس تحوى كلمات متقابلة بلغات مختلفة مع شرح لمعناها وطريقة نطقها، وبعضها مكتوب بلغات أجنبية مع ترجمة لها إلى اللغة الآشورية أو بدونها، وبعضها الآخر بلغات أكثر قدماً من اللغة الآشورية كالبابلية القديمة والسومرية الأقدم عهداً، وقدر عدد هذه الألواح بين سليم ومكسور بنحو ٢٥ ألف لوح. وأودعت هذه الألواح جميعاً فى المتحف البريطانى بلندن لتكون ذخيرة لأبحاث تستغرق سنوات وسنوات من جانب علماء اللغات الشرقية القديمة.

وكان من أوائل الذين عكفوا على دراسة هذه الألواح وفك رموزها العالم البريطانى راولنسون الذى قام بتصنيفها واختار منها بعض الكتابات تولى نشرها تباعاً فى مجموعات متتالية. وقد ورد اسم ديلمون مرتين فى المجموعة الثانية من مجموعات راولنسون، ومرتين فى المجموعة الثالثة، ومرتين فى المجموعة الرابعة.

والواقع ان اسم ديلمون كان معروفاً قبل ظهور مجموعات راولنسون، فقد عثر عليه قبل ذلك منقوشاً فى نص على جدران قصر الملك سرجون الآشورى (القرن السابع ق.م) الذى اكتشفه العالم لايار فى كويونجيك وقد جاء فى هذا النص الذى يسجل فتوحات الملك وحملاته العسكرية:

«**وأخضعت تحت امرتى بيت ياكين على شاطى البحر المر** منطقة الخليج **ديلمون» ثم يضيف النص ان «أوبيرى ملك ديلمون الذى يعيش كالسمكة** ديلمون **الماء على مسافة ٣٠ ساعة مزدوجة (بيرو) وسط بحر الشمس المشرقة سمع قوتى وبعث لى بهداياه»**.

ولم تفد الاشارات إلى اسم ديلمون التى وردت فى مجموعات راولنسون كثيراً فى زيادة معلومات العلماء عنها. إذ أن ثلاثاً من هذه الاشارات جاءت فى أشعار أو أغان تربط على نحو غامض بين ديلمون وعدد من الآلهة المختلفة. وواحدة تذكر ديلمون فى عداد المدن الخاضعة لآشور فى زمن الملك آشور بانيبال، والاشارة الخامسة جاءت فى قائمة تحوى أسماء بعض الآلهة والأقاليم التى تحت هيمنتها، وفى هذه القائمة سطر يقول «**الإله انزاك.. إله ديلمون**»، أما النص السادس والأخير فهو عبارة عن لوح مسمارى يسجل أعمال الملك سرجون الاكدى ويذكر انه وصل إلى «البحر الأسفل وهزم ديلمون».

وقد ظن سير راولنسون فى أول الأمر أن سرجون الأكدى هذا شخصية أسطورية. ولكن الاكتشافات التى توالت فى بلاد ما بين النهرين لم تلبث أن أثبتت انه شخصية حقيقية، فهو مؤسس الامبراطورية الأكادية بعد أن هزم السومريين وقضى على مدنهم وجعل عاصمته «آكاد» فى جنوب العراق عاصمة لامبراطورية شاسعة الأطراف تمتد من شاطىء البحر المتوسط غرباً إلى شواطىء الخليج جنوباً. وقد عاش هذا الفاتح «السامى» الكبير حوالى عام ٢٣٠٠ ق. م. أى أنه يسبق بستة عشرة قرناً سميه سرجون الآشورى الذى عاش فى القرن السابع قبل الميلاد والذى سبق أن رأينا انه أخضع ديلمون أيضاً وتلقى الهدايا من ملكها أوبيرى.

مسألة ديلمون

وعلى أية حال فإن علماء الآشوريات كما سلف القول لم يهتموا كثيراً بتعيين مكان ديلمون، فقد كان أمامهم ما يهتمون به أكثر وهم عاكفون على استخلاص تلك الحضارة البابلية العظيمة من الضباب الأثرى ومقارنة ما تسفر عنه الاكتشافات الأثرية بما سجل عن أحوال بلاد شنعار وملوك الرافدين فى اصحاحات العهد القديم.

ولكن مسألة ديلمون لم تلبث أن برزت وفرضت نفسها على رجال الآثار المشغولين بما يتصورون أنه أهم وأجدى.

ففى عام ١٨٨٠ اكتشف رحالة بريطانى يدعى الكابتن ديوراند حجراً عليه كتابة مسمارية فى مسجد قديم بالبحرين. وكان هذا الاكتشاف بمثابة حجر الزاوية فى معرفتنا بتاريخ البحرين القديم على نحو يذكرنا بحجر رشيد بالنسبة لمعرفتنا باللغة المصرية القديمة. ونستمع إلى الكابتن ديوراند يقص نبأ عثوره على الحجر، فيقول:

«.. وأخيراً أبلغنى أحد الناس عن حجر عليه كتابة لا يعرف نوع كتابتها أو قراءتها، فذهبت لرؤية ذلك الحجر المطمور فى أرض مدرسة الداوود بالبلاد القديم.. وهذا الحجر من البازلت الأسود يشبه فى شكله مقدمة السفينة أو لسان الحيوان وهو بطول قدمين وبوصتين، وبالرغم من قداسة المكان الذى يوجد فيه الحجر إلا اننى لم أواجه أية صعوبة فى الحصول عليه وذلك بعد أن أخبرت الملاّ بأن ذلك الحجر يخص عبدة النار وانه بمثابة صنم لا يناسب المكان المطمور بأرضه، ولكى أدعم كلامى ووجهة نظرى تبرعت ببضع روبيات لترميم المسجد فما كان من الشيخ (الملاّ) واسمه أحمد إلا أن أرسل أحد عبيده ليحفر الأرض وينقل ذلك الحجر إلى منزلى».

ولما فكت طلاسم الكتابة المسمارية المنقوشة على الحجر وجد أنها عبارة عن جملة واحدة فى ثلاثة أسطر تقول:

Hekal. Rimugas eri Inzak Agiru

وترجمتها: «هذا قصر ريموقاس
خادم الاله انزاك
من قبيلة عقير»

وكانت هذه العبارة بمثابة مفتاح سر ديلمون الغامض، فقد كلفت الجمعية الآسيوية الملكية التى نشرت تقرير الكابتن ديوراند عالم الاشوريات البريطانى سير راولنسون بأن يعلق على التقرير. وكتب راولنسون مقالاً بديعاً فى حجم تقرير ديوراند نفسه عن «مسألة ديلمون» ربط فيه لأول مرة بين اسم ديلمون القديمة

والبحرين الحديثة وأورد فيه جميع الاشارات التى وردت عن ديلمون ومنطقة الخليج فى الكتابات المسمارية ومؤلفات الاغريق والرومان، كما تحدث عن مكانة ديلمون فى أساطير البابليين وديانتهم.

اعتمد راولنسون على النص الذى سبق أن نشره فى احدى مجموعاته والذى يقول: «الاله انزاك .. اله ديلمون» للقول بان اكتشاف أثر لكاهن هذا الاله فى البحرين يدل على ان البحرين هى نفسها ديلمون القديمة. وقال راولنسون ان انزاك اسم أكادى للإله Nedo الذى يسميه الاغريق Mercury أى عطارد، والمعروف ان الاغريق منذ أيام الاسكندر يرون أن أهم عبادة كانت فى منطقة الخليج العربى Sinac Arabisco هى عبادة فينوس **Vinus** إلهة الحب والجمال وهى ذات علاقة بعطارد أو انزاك باللغة الأكادية البابلية.

ولكن سير راولنسون أقام اعتقاده هذا على الحدس أكثر مما أقامه على الدليل القاطع .. وقد أثبتت الاكتشافات التالية صحة حدسه! وأتى بعد ذلك دكتور بيتر كورنوال الذى قام خلال الحرب العالمية الثانية بالتنقيب فى عدد من تلال المدافن بالبحرين ثم كتب نظرية مفصلة قدم فيها مزيداً من الأدلة على أن البحرين هى ديلمون القديمة.

نص سرجون الأشورى

إذا كانت ديلمون هى البحرين كما استنتج راولنسون من الربط بين ما جاء فى الحجر الأسود من أن البحرين هى مقر انزاك وما جاء فى الوثيقة المسمارية التى ورد بها نص يقول: «الاله انزاك اله ديلمون» فهل ينطبق هذا الاستنتاج المنطقى على اشارة سرجون الآشورى إلى ديلمون بأنها «تقع على مسافة ٣٠ ساعة مزدوجة (بيرو) وسط بحر الشمس المشرقة»؟.

هذا السؤال تصدى للإجابة عنه بالايجاب العالم الأثرى الدنماركى چيوفرى بيبى الذى قام بالتنقيبات الشهيرة فى البحرين ومنطقة الخليج. إذ يعتقد بيبى أن نصر سرجون الآشورى يحدد بدقة نسبية بالغة موقع ديلمون فى الخليج العربى.

ان نص سرجون الآشورى يذكر مكانين على وجه التحديد هما بيت ياكين وديلمون، وواضح من النص انه كانت هناك حدود مشتركة بين ديلمون وبيت

ياكين مما يدل على أن ملك ديلمون «أوبيرى» بينما كان يعيش فى جزيرة (كالسمكة فى الماء) كان يفرض سيطرته أيضاً على جزء من الساحل القارى لبلاد العرب، ولكن بيت ياكين كانت بدورها متصلة بحدود عيلام (التى هى فى ايران حالياً وعاصمتها سوسة) كما يفهم من النص أيضاً.. فأين تقع بيت ياكين على وجه التحديد؟.

نعرف من نص آشورى آخر تركه سنحريب Sennaeherib ابن سرجون الآشورى والذى تولى الملك بعد أبيه عام ٧٠٥ق.م. انه حارب ميروداش ــ بالادان Merodach Baladan ملك بيت ياكين الذى كان قد ثار بعد أن أخضعه والده سرجون ويقول النص: «**ان سنحريب هزم ميروداش ــ بالادان وأخضع بلاده بيت ياكين وان سكان المدن الساحلية فى بيت ياكين ركبوا السفن وعبروا البحر حيث لجأوا إلى عيلام**» وهذا لا يترك مجالاً للشك فى أن بيت ياكين كانت على الجانب الغربى للخليج بدليل ان سكانها اضطروا لعبور البحر للوصول الى عيلام على الجانب الشرقى هرباً من سنحريب، وبذلك تكون الحدود المشتركة بين بيت ياكين وعيلام التى تحدث عنها سرجون الآشورى تقع فى المنطقة الشمالية من رأس الخليج فى مكان ما من الجزء الجنوبى لوادى دجلة والفرات، ويكون موقع ديلمون القارية (التابعة لديلمون الجزيرة) جنوبى بيت ياكين على امتداد الساحل العربى للخليج، أى منطقة الاحساء شمالاً إلى الكويت بالأسماء المعاصرة.

نأتى بعد ذلك الى تحديد موقع جزيرة ديلمون حسب نص سرجون الآشورى. ان النص يشير الى أنها تبعد بمقدار ٣٠ساعة مزدوجة داخل الماء، والساعة المزدوجة (بيرو) وحدة قياس للمسافة بمقدار ساعتى مشى، أى أنها تبعد بمقدار ٦٠ ساعة مشى، وإلى هنا تبرز عقبتان:

الأولى: اننا لا نعرف من أين يبدأ القياس الذى يؤدى إلى الوصول إلى ديلمون بعد ٦٠ ساعة مشى.

الثانية: اننا إذا اعتبرنا ان الساعة المزدوجة تقاس بالمشى على الأقدام فان ديلمون تكون أبعد كثيراً إلى الشمال عن موقع البحرين الفعلى.

غير ان امعان النظر قليلاً يحل العقبتين.. فالأكثر احتمالاً أن يبدأ القياس من «ساجلات» على حدود عيلام حيث يبدو محتملاً ان أوبيرى ملك ديلمون قدم هداياه إلى سرجون فى هذا المكان، وهو يقع فى رأس الخليج أو منطقة شط العرب حالياً حيث تلتقى حدود عيلام وحدود بيت ياكين.

أما العقبة الثانية فتزول أيضاً إذا اعتبرنا أن البيرو أو الساعة المزدوجة المشار اليها فى النص تقاس بالابحار وليس بالمشى على الأقدام، فعندئذ تبدو المسافة المذكورة معقولة جداً، فإذا كان القارب القديم يبحر مسافة ٥ أميال فى الساعة الواحدة أى عشرة أميال فى الساعة المزدوجة (البيرو) فانه يقطع بعد ٣٠ ساعة مزدوجة ٣٠٠ ميل وهى نفس المسافة التى تبعدها البحرين فعلاً عن رأس الخليج.

وعلى هذا ــ كما يقول جيوفرى بيبى ــ يكون تخمين راولنسون صحيحاً إلا إذا تخلينا عن الشاهد الجغرافى الأثرى الوحيد الذى لدينا عن موقع ديلمون.

وبعد زمن ديوراند وراولنسون اكتشف اسم ديلمون فى كثير من الوثائق المسمارية الأخرى المتعلقة بشتى الأغراض الدينية والتجارية والسياسية، وأقدم وثيقة تذكر اسم ديلمون تم اكتشافها حتى الآن هى لوح أور ــ نانيش ملك لجش الذى عاش حوالى عام ٢٥٢٠ ق.م. وفيه يقول: «ان سفن ديلمون القادمة من بلاد أجنبية أحضرت لى الخشب كهدية». أما أحدث وثيقة مسمارية تذكر اسم ديلمون فهى وثيقة ادارية من العام الحادى عشر من حكم نابونيدوس ملك بابل الذى عاش عام ٥٤٤ ق.م. وجاء فيها ذكر «حاكم ديلمون».

وبذلك تكون ديلمون قد استمرت معروفة لمعاصريها فى الزمن القديم ألفى عام (من ٢٥٢٠ الى ٥٤٤ ق.م.) ولا شك أنها كانت معروفة قبل ذلك وبعد ذلك وقد تكشف الوثائق فى المستقبل مايزيد من المساحة الزمنية لمعرفتنا بها.

أسطورة الفردوس

لم تكن ديلمون مجرد مملكة صغيرة إلى الجنوب من بابل، ولم تكن مجرد محطة بحرية تجاريّة فى الطريق من الهند إلى بلاد الرافدين ولا تقتصر أهميتها على مجرد معرفتنا بحضارة مفقودة أخرى أو مكان أثرى آخر كما هو الحال مع ماجان وميلوخا وعيلام وبيت ياكين وغيرها من نقاط الحضارة المتناثرة حول بلاد الرافدين. وانما

تكمن أهمية ديلمون على وجه التحديد فى أنها تحتل مكاناً فريداً فى الميثولوچيا السومرية والبابلية باعتبارها مكاناً مقدساً له مواصفات الجنة أو الفردوس.

وتحدثنا أسطورة سومرية شهيرة عن ديلمون كأرض طاهرة نظيفة مشرقة، لاموت فيها ولا مرض ولا عدوان، على نحو يفيد وجود فكرة سومرية عن جنة مقدسة فى هذا المكان تصفها الأسطورة فى أبياتها الافتتاحية كما يلى:

أرض ديلمون مطهرة.. أرض ديلمون نقية
أرض ديلمون نظيفة.. أرض ديلمون مشرقة
فى ديلمون لا ينعق الغراب
ولا تصيح الحدأة
ولا يقتل الأسد
ولا يفترس الذئب الحمل
لا يوجد فيها كلب يقتل جدياً
أو خنزير يسطو على غلة
لا أحد يقول عينى تؤلمنى
ولا أحد يقول رأسى تصدعنى
فيها لا تقول المرأة العجوز: أنا عجوز
ولا يقول الشيخ: أنا طاعن فى العمر
فيها الغادة لا تستحم (أى لا تتسخ)
والماء المتلالىء لا يراق
من يعبر النهر (الموت؟) لا تندو عنه.. (صيحة؟)
ولا يمشى إليه الكهنة النائحون
والمغنى لا ينطق بالبكائيات
ولا يقف إلى جانب سور المدينة (الجبانة؟) ويرفع عقيرته بالرثاء..

هذه الأسطورة وردت فى نص سومرى اكتشف فى نيبور عبارة عن لوح طينى كبير يضم ٢٧٨ سطراً من الكتابة المسمارية فى ستة أعمدة وهو محفوظ حالياً فى متحف جامعة بنسلڤانيا الأمريكية، وقد نشر النص لأول مرة فى عام ١٩١٥ ولكن ترجمته حينئذ كانت غامضة وغير مفهومة إلى حد كبير. وفى عام ١٩٤٥

ظهرت ترجمته الدقيقة الواضحة على يد البروفيسور كريمر الثقة العالمى فى الحضارة السومرية وأمين قسم الشرق الأدنى بمتحف جامعة بنسلفانيا .

وكان كريمر نفسه هو أول من أطلق على هذه الأسطورة فى كتابه « نصوص الشرق الأدنى القديم » اسطورة الفردوس ، كما انه أسمى اللوح المكتوبة عليه الأسطورة «لوح امركار» نسبة إلى السيدة امركار التى حملته من العراق إلى أمريكا .

ولحسن الحظ فان لوح امركار هذا الذى يحوى « اسطورة الفردوس » من أحسن الألواح السومرية حفظاً وسلامة ، ليست به فراغات أو انقطاعات أو غموض مما أتاح للعلماء معلومات متصلة قيمة عن سمات الفردوس لدى السومريين التى ربما تكون قد نفذت إلى التصور العبرانى للفردوس كما سنرى فيما بعد .

تجرى أحداث الأسطورة فى ديلمون التى توصف بأنها « بلاد ومدينة » والتى رأينا وصفاً لها فيما سبق ، أما أشخاصها الرئيسيون فهم « انكى » إله الماء و « نينخورساك » ربة الأرض وعدة آلهة أخرى من آلهة النباتات .

وتمضى أحداث الأسطورة بعد الوصف الافتتاحى لجنة ديلمون فتقول أن الشيء الوحيد الذى كان ينقص ديلمون هو الماء العذب ، ولذلك طلبت الربة نينخورساك (الأرض) من الإله انكى (اله الماء العذب) أن يوفر المياه العذبة التى تنقص هذه الجنة الأرضية ، وهو ما فعله انكى بسعادة ، ثم يتزوج انكى من نينخورساك وينجبان الإلهة نينسان Ninsan أو نينمو Ninmu (إلهة النباتات) ومما له دلالة أن الأسطورة تذكر أن فترة حمل نينخورساك لنينمو كانت تسعة أيام ، أى أن اليوم يقابل شهراً بالنسبة للحمل البشرى ، ووضعت نينخورساك حملها بدون ألم .. إذ لا ينبغى أن ننسى أن هذه الأحداث تدور فى الجنة ، ولا ألم فى الجنة .

إلى هنا يبدو منطق الأسطورة مفهوماً .. التزاوج بين الأرض والماء العذب ينتج النبات ، فنحن إذن أزاء أسطورة « تفسيرية » أى أسطورة تفسر أصل الأشياء لا أسطورة « طقوسية » أى تستخدم للتلاوة فى المراسم الدينية ، غير أن الأسطورة التى نحن بصددها لا تلبث أن تدخل فى مجالات لا يحيط بها ادراكنا الحديث ، فتقول ان انكى واقع ابنته نينسان فولدت الربة نينكورا Ninkurra وهذه بدورها

يواقعها انكى فتلد الربة أوتو Utto التى توصف أيضاً بأنها من آلهة النباتات، وعندئذ تحذر الربة الأم نينخورساك حفيدتها أوتو من أنكى وتنصحها كيف تتصرف لتدفع عن نفسها غائلته، ولكن انكى وقد شاهد أوتو على حافة الغدير فتاة يانعة ناضجة يحن إلى مضاجعتها ويتقرب اليها، فتطلب أوتو ـ ربما نتيجة لنصيحة نينخورساك ـ أن يأتيها انكى بهدية من الخيار والتفاح والعنب (مما يدل على أن عادة هدية العرس كانت معروفة منذ أقدم العصور) ويحضر انكى الهدية المطلوبة إلى كوخ أوتو وتستقبله هذه بابتهاج، ونتيجة لاتحادهما تولد ثمانى مولودات جديدات، ولكن قبل أن تتمكن نينخورساك من اعطاء هذه المولودات اسماءها وخصائصها يبعث انكى رسوله إسيمود Isimud لاحضارها له حيث يأكلها جميعاً واحدة وراء الأخرى.

هذه التفاصيل يغمض تفسيرها كما هو واضح، ولكن ربما كانت تشير إلى تفسير بعض الظواهر النباتية نتيجة لاتحاد الماء بالنباتات المختلفة، فتنشأ مثلاً الطحالب ومواد الصباغة.. الخ.

وعلى أية حال تمضى الأسطورة فتقول ان نينخورساك تغضب غضباً شديداً من انكى وتصب عليه لعنات رهيبة وتنصرف عنه، كما تستاء الآلهة الأخرى أيضاً من أفعاله، ونتيجة لذلك يسقط انكى مريضاً مصاباً فى ثمانية أجزاء مختلفة من جسمه.

ولنا أن نتصور كيف تتدهور الأشياء نتيجة للخصام بين انكى ونينخورساك، أى نتيجة لانحسار الماء العذب عن الأرض الخصبة، فلا بد أن تكون النباتات قد ذبلت ووحوش جنة ديلمون وطيورها قد تضررت، ان شيئاً غير مقدس (الخصام والغضب) قد حدث فى هذه الأرض المقدسة، ولكن الوضع لا يستمر على ذلك طويلاً، اذ يتصدى ثعلب الجنة للمصالحة بينهما، ونتيجة لدهاء الثعلب تعود نينخورساك وتقرر معالجة انكى بأن تخلق ثمانى آلهات تتولى كل منها شفاء جزء من أجزاء جسد انكى المريض. وهكذا تخرج ثمانى آلهات جدد كان آخرها الاله انشاج Enshag المقابل السومرى للاله انزاك اله ديلمون الذى عثر على اسمه مكتوباً على الحجر الأسود الذى اكتشفه الكابتن ديوراند فى البحرين.



«إنكى» إله المياه الجوفية وكبير آلهة ديلمون

ويشير الباحثون إلى وجود علاقة لغوية بين اسماء كل من هذه الآلهة الثمانى وبين أسماء الأعضاء المصابة فى جسد انكى وتبرز منها بصفة خاصة إلهة تدعى نينتى Ninti تتولى علاج ضلع انكى، إذ ان كلمة «نن» بالسومرية معناها سيدة، وكلمة «تى» تعنى ضلعاً، فيكون اسم هذه الربة «سيدة الضلع» ومن العجيب أن كلمة «تى» تعنى أيضاً فى اللغة السومرية (الحياة) أى ان اسم هذه الربة يمكن أيضاً أن يكون «سيدة الحياة».. أو «حواء»!.

وهنا نجد تشابهاً قوياً ملفتاً للنظر بين الأسطورة السومرية وقصة التوراة عن خلق حواء من ضلع آدم. إذ يقول سفر التكوين: **«فاوقع الرب الإله سباتاً على آدم فنام فأخذ واحدة من أضلاعه وملأ مكانها لحماً وبنى الرب الإله الضلع التى أخذها من آدم امرأة وأحضرها إلى آدم».**

والسطور الختامية فى القصيدة السومرية ممحوة بعض الشيء ولكن يبدو انها توحى بأن الآلهة الثمانى اعتبرت بمثابة بنات انكى وابنائه وقامت نينخورساك بتحديد مصائرها، ومن المهم أن نلاحظ أن هذه الأسطورة الغريبة لا مقابل لها فى أساطير الشرق الأدنى القديم إلا فيما يتعلق بفكرة وجود عصر ذهبى فى الماضى السحيق وهى فكرة واسعة الانتشار فى كل أساطير البشرية.

تأثر العهد القديم
بفكرة الجنة الديلمونية

ان هذه الأسطورة السومرية التى تدور أحداثها فى ديلمون تعد أول وأقدم نص بشرى يتحدث عن فكرة وجود أرض مقدسة وارفة الظلال، جارية الأنهار، تمت فيها عملية خلق على نحو ما، وهى أرض مبرأة من كل سوء، لا يعرف فيها المرض أو الموت، ولا تفترس الحيوانات بعضها بعضاً. هذه السمات قوية الايحاء بفكرة الجنة التى ورد ذكرها فى سفر التكوين من العهد القديم مما جعل بعض الباحثين يتجهون الى افتراض ان كاتب سفر التكوين قد تأثر بفكرة الجنة الديلمونية. وبالطبع فان هذا التأثير ـ كما يقولون ـ لم يكن بالضرورة نتيجة نقل مباشر، أى بترجمة الأسطورة الديلمونية إلى اللغة العبرانية القديمة، وإنما يمكن القول بأنه وجدها فى تراث شعبه فأخذها واستفاد بها ونسج منها قصة عن معتقداته حول الجنة.

فإذا أضفنا إلى ذلك اشارة الأسطورة السومرية إلى خلق امرأة فى هذه الأرض تتولى علاج ضلع رجل لأمكن القول ان التشابه بين الحكايتين لم يكن محض صدفة خاصة إذا كان اسم هذه المرأة واحداً فى الحالتين، فهو مشتق من مادة الحياة، فالمرأة تدعى «سيدة الحياة» فى القصة السومرية و«حواء» فى سفر التكوين.

والواقع انه ليس وصف الجنة وعلاقة حواء بضلع الرجل هما الأمران المتشابهان الوحيدان بين سمات الجنة فى سفر التكوين وتلك الأساطير السومرية الأقدم عهداً بألف عام على الأقل وإنما هناك عناصر كثيرة أخرى متشابهة بينهما، فثلاً هناك النص فى التراثين على أهمية اكتساب المعرفة، والتحدث عن سر الولادة والخلق، وسر الحياة والموت، وسبب الألم والمرض والشقاء، وخلق الانسان الأول من عنصرين ترابى والهى كما نجد ذكراً فى الحالتين لرموز معينة مثل الشجرة المقدسة وألواح القدر، ودهاء الحية، ونعرف من أسطورة أدابا (آدم؟) السومرية وملحمة جلجاميش مدى اهتمامهما بالبحث عن الخلود، وكيف أصبحا قاب قوسين أو أدنى من الحصول عليه، ثم فقداه نتيجة للضعف البشرى، تماماً كما حدث لآدم فى الجنة، بالرغم من اختلاف الوقائع المحددة فى التراثين.

ولعله ليس من قبيل الصدفة أن يحدد سفر التكوين موقع الجنة فى مكان ما من بلاد الرافدين أو بالقرب منها، وأن يذكر من بين أنهارها دجلة (حدقل) والفرات، فقد جاء فى سفر التكوين: ١٢ : ١٤

«ولقد أثبت السيد الرب جنة في ناحية الشرق من عدن ووضع فيها الانسان بعد ما خلقه، ومن الأرض أخرج السيد الرب كل شجرة تسر النظر وتكون صالحة للغذاء.. ونهراً يخرج من عدن يروى الجنة ومن ثم يتجزأ فى أربعة رؤوس فاسم الأول منها بيسون واسم النهر الثانى جيحون واسم النهر الثالث حدقل وهو الذى يجرى نحو شرق آشور، والنهر الرابع هو الفرات».

ويقول الدكتور فاضل عبد الواحد على المتخصص فى حضارات مابين النهرين ان كلمة عدن ربما جاءت من الكلمة السومرية Adinu ومعناها السهل أو

الأرض السهلة وبالاضافة إلى هذا المدلول العام للكلمة فقد ظهر من النصوص السومرية التي انحدرت الينا من فجر عصر السلالات الثالث الثالث [في حدود ٢٤٥٠ق.م.) أن كلمة عدن كانت تطلق بالتحديد على المناطق السهلة الواقعة جنوبي مدينة أوما (خوجة الحالية) غربي مدينة لكش، وهي المنطقة التي كانت سبباً في نزاع طويل بين هاتين المدينتين أوما ولكش. ثم نجد التوراة تفترض ضمنياً ان جنة عدن كانت تقع في جنوب وادي الرافدين أي في سومر.

وعلى ذلك يمكن القول بان العبرانيين قد أخذوا اسم عدن ومكان وجودها في بلاد الرافدين عن الحضارة السومرية وربطوها بتصور الجنة الديلمونية دون أن يدركوا ان السومريين كانوا يتصورون وجود الجنة في جزيرة ديلمون بالتحديد، ومع ذلك فان كلمة «الفردوس» التي تطلق أحياناً على الجنة يمكن أن تشير إلى موقع ديلمون بالتحديد.

إذ يقول العلامة جواد علي (المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام جـ١ ص٥٦٣) هناك نص بابلي يرجع إلى سنة ٣١٧ق.م. وردت فيه عبارة «أرض رعيت برديسو» Pardesu وتقابل هذه الكلمة كلمة Pildash أو Pardes بالعبرانية وفردوس بالعربية وتقع هذه الأرض في القسم الشرقي من جزيرة العرب بين ماجان (عمان الحالية) وبيت نبسانو Bit Napsanu (التي هي جزيرة ديلمون) وقد حملت هذه التسوية بعض العلماء على التفكير في أن ما ورد عن جنة عدن في التوراة إنما أريد به هذه المنطقة التي تقع في القسم الشرقي من جزيرة العرب وعلى سواحل الخليج.

ويوجد في المتحف البريطاني خاتم سومري يرجع تاريخه إلى منتصف الألف الثالث قبل الميلاد اشتهر منذ اكتشافه باسم «خاتم الاغراء» Seal of Temptation إذ انه ينقل بصورة وافية جو الفردوس الذي ورد في التوراة فعناصر تصميمه تتألف من اله وشجرة وامرأة وحية جنباً إلى جنب، والشجرة محملة بالثمار، والحية تقف على ذنبها خلف المرأة وكانها تهمس في أذنها. وقد اختلفت الآراء في هذا الخاتم فقال بعض المتحمسين من العلماء انه يمثل اشارة واضحة إلى قصة الاغواء التي تعرض لها آدم في الجنة، وقال آخرون انه لاينبغي أن نحمّل الأثر أكثر مما يحتمل وان التشابه بين محتوياته وعناصر قصة الاغواء الدينية ليس أكثر من

مصادفة، ولكن مايهم على أية حال هو أن هذا الخاتم يمثل مفهوم العراقى القديم للعصر الذهبى السحيق حيث كان يتجمع الآلهة والبشر تحت ظلال الأشجار وتشاركهم سعادتهم الطيور والوحوش دون عداء أو فزع، وهو نفس ما تمثله صورة ديلمون فى أسطورة «انكى ونينخورساك» التى وردت فى لوح امركار الذى أشرنا اليه فيما قبل، فهنا نجد أن الاسد لايقتل، والذئب لايفترس الحمل، والكلب لايعقر، والخنزير لايسطو على الغلة.

ونجد لهذه الصورة أيضاً انعكاساً فى سفر اشعياء بالتوراة حيث نقرأ عن حالة السلم والطمأنينة بين الانسان والحيوان مايلى:

« فيسكن الذئب مع الخروف، ويربض النمر مع الجدى، والعجل والشبل والمسمَّن معاً، وصبى صغير يسوقها، والبقر والدابة ترعيان، تربض أولادهما معاً، والأسد كالبقر يأكل تبنا، ويلعب الرضيع على درب الصل، ويمد الفطيم يده على جحر الأفعوان ..».

(أشعياء ١: ٦ــ١٠)

الناجى من الطوفان
يحيا فى أرض الخلود

هذه النظرة إلى ديلمون باعتبارها الجنة أو الفردوس الأرضى جعلت سكان بلاد الرافدين القدماء يعدونها أيضاً «أرض الخلود»، ولذا كان من الطبيعى أن تجعلها الآلهة المكان الذى يقيم فيه الرجل الذى نجا من الطوفان بعد أن منحته الآلهة حق الخلود.

ولدينا نصان لأسطورة الطوفان احدهما سومرى وهو الأقدم بالطبع، والثانى بابلى آشورى مأخود عنه مع تغيير أسماء الأبطال والآلهة، والمعروف ان الحضارة البابلية الآشورية ورثت الكثير من ثقافة السومريين فى اللغة والكتابة والأساطير والأدب والدين .. الخ.

وفى أسطورة الطوفان السومرية نقرأ:

« تجمعت كل العواصف البالغة القوة وهاجمت كعاصفة واحدة..
وفى وقت واحد غطى الفيضان مراكز العبادات
ولمدة سبعة أيام وسبع ليال
ظل الطوفان يجتاح كل الأرض
وأخذ القارب الكبير تتقاذفه العواصف فوق الأمواج العظيمة
وانبلج أوتو (إله الشمس) وألقى ضوءه على السماء والأرض
وفتح زيوسودرا نافذة القارب العظيم
ونثر البطل أوتو أشعته داخل السفينة الكبيرة
وتقدم زيوسودرا الملك
وركع أمام أوتو
وذبح ثوراً وغنماً

وبعد انقطاع فى اللوح المسمارى الذى يحوى الأسطورة يمضى النص فيصف مصير زيوسودرا قائلاً:

تقدم زيوسودرا الملك
فركع أمام آنو وانليل
وبارك آنو وانليل زيوسودرا
وأعطياه حياة تشبه حياة الآلهة
وهباه أنفاساً خالدة كأنفاس إله
وعندئذ، زيوسودرا الملك
الذى حفظ اسماء النباتات وبذرة البشرية
جعلته الآلهة يعيش
فى أرض ديلمون
أرض العبور
المكان الذى تشرق منه الشمس.

ففى هذا النص السومرى من أسطورة الطوفان تذكر الأسطورة صراحة أرض ديلمون كمكان يعيش فيه زيوسودرا Ziusudra ملك سيبار Sippar الناجى من الطوفان، إذ لما كان زيوسودرا قد منح حياة خالدة جزاء لأنه «حفظ أسماء

النباتات وبذرة البشرية» لذا كان من الطبيعى أن يحيا فى أرض الخلود لأن الفكرة المسبقة لدى السومريين عن ديلمون أنها الجنة.

ولكن النص البابلى من أسطورة الطوفان، وهو الأحدث عهداً من النص السومرى، لا يذكر ديلمون بالاسم كمكان يعيش فيه الناجى من الطوفان وهو أوتنابيشتيم Utnapishtim الذى يعادل زيوسودرا فى الأسطورة السومرية. ومن غير الواضح ما إذا كان عدم ذكر ديلمون فى هذا المقام يعود إلى انقطاع فى النص — إذ ان اللوح غير واضح بالفعل فى هذا المكان — أو لأن البابليين لم يكونوا ينظرون إلى ديلمون كأرض جنة وخلود كما كان يفعل أسلافهم السومريون، خاصة أن هؤلاء — أى السومريين — كانوا ينفردون باسطورة انكى ونينخورساك التى لا مقابل لها فى الميثولوچيا البابلية.

ومع ذلك فإن النص البابلى أيضاً يشير اشارات قوية إلى امكان أن تكون ديلمون هى المكان الذى التقى فيه جلجاميش مع أوتنابيشتيم الناجى من الطوفان، إذ فى نهاية القصة عندما تعلن الآلهة رضاها عن اوتنابيشتيم وزوجته يباركهما كبير الآلهة انليل ويمنحهما الخلود كآلهة، ويجعلهما يعيشان «هناك بعيداً عند فم الأنهار» وإذا لاحظنا ان ديلمون تقع على الامتداد البحرى لفم نهرى دجلة والفرات (وغيرهما من أنهار الهضبة العيلامية) امكننا المطابقة بين مكانى اقامة بطل الطوفان فى الأسطورتين.

ولما كان النص البابلى هو الأوفى من حيث تفصيلات القصة فلا بد من استعراضه بشيء من الاسهاب فى مقام البحث عن مركز ديلمون فى الأساطير المسمارية.

ملحمة جلجاميش

ان قصة الطوفان البابلية هى جزء من ملحمة جلجاميش الشهيرة وقد عثر على هذه الملحمة فى ١٢ لوحاً وجدت مطمورة فى اطلال مكتبة آشور بانيبال فى نينوى. وفى عام ١٨٧٢ حلت رموز أحد هذه الألواح، وهو اللوح رقم ١١، فوجد أنه يحتوى على قصة طوفان عظيم تعرضت له البشرية بأسرها ونجا منه فرد واحد

وعائلته وما أخذه معه من نباتات وحيوانات وأدى هذا الاكتشاف إلى اثارة اهتمام بالغ فى العالم وفى الدوائر الدينية والأكاديمية على وجه الخصوص نظراً للتشابه الكبير بين هذه الأسطورة وقصة الطوفان التى وردت فى الكتب المقدسة.

ولحسن الحظ فان اللوح الحادى عشر من ملحمة جلجاميش كان أحسن ألواح الملحمة الأثنى عشر حفظاً مما أعطانا تفاصيل كثيرة عن قصة الطوفان كما حكاها أوتنابيشتيم والطريق الذى سلكه جلجاميش كى يلتقى به. وتصور الأسطورة جلجاميش ملك اريك (الوركاء) على أنه حفيد اوتنابيشتيم الناجى من الطوفان، وبعد أن تقص الأسطورة حياة جلجاميش ومغامراته وتصور مدى انزعاجه لوفاة صديقه انكيدو وادراكه ان الموت لا محالة طائله هو أيضاً، تحكى لنا القصة أن جلجاميش قرر الانطلاق للبحث عن جده اوتنابيشتيم الرجل الوحيد الذى كافأته الآلهة بالخلود جزاء تقواه وانقاذه بذرة البشرية من الطوفان، وذلك على أمل أن يعرف منه سر الخلود.

وفى بداية رحلة البحث عن اوتنابيشتيم يصل جلجاميش إلى سفح سلسلة جبلية هى جبال ماشو. وكان يحرس مدخل هذه السلسلة من الجبال «رجل ـ عقرب» وزوجته. ويحذره الرجل العقرب بأن أى انسان حى لم يستطع أن يجتاز هذه الجبال ويقاوم أخطارها، ولكن أمام اصرار جلجاميش على مغامرته يسمح له الحارس بالمرور، ويتبع جلجاميش فى رحلته الطريق الذى تسلكه الشمس، وبعد أخطار مخيفة يصل إلى شاطىء بحر الموت، وهناك يجد حارساً آخر فى شكل امرأة صاحبة حانة جعة تدعى الربة سيدورى، وتحاول سيدورى بدورها أن تثنيه عن محاولة عبور بحر الموت، وتخبره ان أحداً غير الإله شمس لا يمكنه عبور ذلك النهر، وتنصحه بأن يتمتع بالحياة طالما أنه لا يزال على قيدها، فالموت مقدر من الآلهة على البشر ولا يستطيع أحد أن ينجو من هذا المصير، وتقول له ألا يحاول البحث عن المستحيل وأن يقنع بأن يملأ معدته بأشهى الطعام وأن يبهج نفسه ليلاً ونهاراً:

«عليك أن تجعل من كل يوم حفلاً للابتهاج
عليك أن ترقص وتلعب ليلاً ونهاراً
فلترتدى أجمل الثياب وأنظفها
فلتغسل رأسك وتستحم فى الماء

ولتبحث عن امرأة تحبها وتحبك
فتمنحها حمايتك وتجعلها تبتهج تحت جناحك
فهذا هو الممكن لأبناء البشر

ولكن البطل جلجاميش يرفض أن يأخذ بنصيحة سيدورى حاملة جرة النبيذ، فيتركها ويمضى فى طريقه، ولدى الشاطىء يلتقى مع «أورشانبى» الملاح الذى كان يقود سفينة أوتنابيشتيم ويأمره أن يعبر به مياه الموت، ويحاول أورشانبى بدوره أن ينصحه ويثنيه، ثم امام اصراره يخبره عن الطريقة التى يمكن أن ينجو بها من المياه القاتلة، وهى أن يصنع طوفاً معيناً من خشب الأشجار ينقله إلى وجهته فى المرحلة الأخيرة من رحلته تلك المحفوفة بالمخاطر والهلاك.

وما أن يلتقى جلجاميش مع أوتنابيشتيم حتى يطلب منه فوراً أن يبلغه بسر الخلود، وماذا فعل كى ينال هذا الامتياز الفريد، فيشرع الشيخ الطاعن فى السن أوتنابيشتيم يقص على مسامع جلجاميش قصة الطوفان، وكيف ان الآلهة قررت تدمير البشرية لأنها تصدر ضوضاء مزعجة. ولكن انكى اله المياه الجوفية (الذى رأينا صلته بديلمون) يحذر أوتنابيشتيم بما أضمرته الآلهة ويبلغه بأن يبنى فلكاً بأوصاف ومقاسات معينة وأن يصطحب معه أسرته وحيواناته، وعلى حين غرة بدأ الطوفان بالفعل بمياه تسقط من السماء وتنبثق من الأرض، ولمدة ستة أيام وليال هبت العاصفة، وعلا الموج، وفى اليوم السابع أطلق أوتنابيشتيم حمامة وعصفوراً تباعاً ولكنهما عادا إلى الفلك فعلم انهما لم يعثرا على أرض صلبة، وبعد ذلك أطلق غراباً فلم يعد، فعلم أن الماء قد غاض، ورسى الفلك على قمة جبل نيسير Nisir [فى شمال كردستان] عندئذ فتح أوتنابيشتيم نوافذ الفلك وقدم الاضحيات للآلهة، وتدخل انكى لدى انليل كبير الآلهة طالباً منه ألا يعاقب كل البشر بخطايا البعض منهم، فلا تذر وازرة وزر أخرى، فوافق انليل على ذلك وتعهد به، ثم دخل انليل الفلك ولمس أوتنابيشتيم وزوجته فى جبهتيهما، وقال:

منذ الآن سيكون أوتنابيشتيم خالداً
منذ الآن هو وزوجته سيكونان مثل الآلهة
ويعيشان هناك بعيداً عند فم الأنهار

ولا يذكر النص البابلى كما أسلفنا مكان التقاء جلجاميش وأوتنابيشتيم بالتحديد، وهو المكان الذى اتخذ مقراً للرجل الخالد، واكتفى بأن أشار اليه بعبارة «هناك بعيداً عند فم الأنهار». ولكن كان واضحاً لدى العلماء ان هذا النص البابلى لا بد أن يكون كغيره من النصوص البابلية والأشورية التى عثر عليها فى مكتبة آشور بانيبال منقولاً عن نص أقدم عهداً لم يكتشف بعد. ومرت أربعون سنة أخرى قبل أن يكتشف هذا النص الأصلى، وعندئذ اتضحت العلاقة الوثيقة بين قصة الطوفان وديلمون.

ففيما بين عامى ١٨٩٩ و١٩٠٠ كانت بعثة أثرية من جامعة بنسلفانيا الامريكية تجرى تنقيبات فى نيبور، وهى من أشهر المراكز الحضارية القديمة بأسفل بلاد ما بين النهرين وكانت فى زمن السومريين وعهد سرجون الاكدى فيما بعد مركزاً لعبادة الإله انليل كبير الآلهة أو الأول بين الآلهة وهو بالتحديد الاله الذى دبر الطوفان ومنح الخلود لأوتنابيشتيم فى النهاية، وكشفت التنقيبات عن أول زاقورة مدرجة يعثر عليها فى بلاد ما بين النهرين، والمعروف انه كان لكل مدينة سومرية زاقورة واحدة فحسب، وعثر بأعلى الزاقورة على معبد صغير، وفى أسفلها على اطلال المعبد الرئيسى لانليل، وبين هذه الاطلال عثر هيلبريخت رئيس البعثة وكان حجة فى الكتابة السومرية على أرشيف المعبد ويحوى حوالى ٣٥ ألف لوح سومرى وهى كمية تفوق ما عثر عليه من موجودات فى مكتبة الملك الاشورى آشور بانيبال من القرن السابع قبل الميلاد.

وكانت معظم هذه الألواح مكتوبة بالقلم السومرى الذى سبق الكتابة البابلية السامية فى بلاد ما بين النهرين، ويرجع إلى هذا الاكتشاف الفضل فى تحسين معرفة العلماء باللغة السومرية. وقد ظل العلماء عاكفين على حل رموز هذا الكنز من الكتابات المسمارية سنين طويلة، وفى عام ١٩١٤ فكت طلاسم أحد الألواح فإذا به يحتوى على جزء من نص قصة الطوفان التى سبقت معرفتها من اللوح البابلى.

ولكن اللوح كان مطموساً فى معظمه للأسف، فلم يكن سليماً منه سوى ثلثه الأسفل وثمة ثغرات فى هذا الثلث أيضاً، غير أن ما تبقى من النص كان كافياً كى يوضح اننا بصدد نفس القصة التى قصها أوتنابيشتيم على جلجاميش فيما عدا

أن الراوى فى النص السومرى يدعى زيوسودرا، ولحسن الحظ فان الجزء الباقى الواضح من النص يحمل معلومات جديدة فى غاية الأهمية، إذ بينما نجد أن النص الآشورى البابلى لا يحدد مكان اقامة أوتنابيشتيم حيث التقى به جلجاميش نجد أن النص السومرى يقول :

وعندئذ زيوسودرا الملك
الذى حفظ اسماء النباتات وبذرة البشرية
جعلته الآلهة يعيش
فى أرض ديلمون
أرض العبور
المكان الذى تشرق منه الشمس

والعبارتان الأخيرتان اللتان تصفان ديلمون بأنها «أرض العبور» و«المكان الذى تشرق منه الشمس» تستحقان وقفة تأمل، فان تعبير «أرض العبور» غير واضح وهى ترجمة حرفية عن الأصل السومرى «كور ــ بالا» Kur — bala وكلمة «كور» معناها فى السومرية «أرض» أو «بلاد»، أما كلمة «بالا» فهو اسم فعل مشتق من فعل «يعبر» ويستخدم بصفة خاصة للدلالة على عبور الأنهار، وهذا يذكرنا على الفور بالتعبير الذى ورد فى النص البابلى عن مكان اقامة أوتنابيشتيم «هناك بعيداً عند فم الأنهار».

أما تعبير «المكان الذى تشرق منه الشمس» فهو لا يقل غموضاً، وكثيراً ما استخدم ــ كما يقول چيوفرى بيبى ــ كحجة لنفى ان ديلمون هى البحرين، إذ ان البحرين تقع إلى الجنوب من نيبور بينما «المكان الذى تشرق منه الشمس» لا بد بالضرورة أن يكون فى اتجاه الشرق. غير أن هذه الحجة كما يقول بيبى لا تصمد كثيراً إذا عرفنا ان البابليين ومن قبلهم السومريين كانوا يطلقون على الخليج العربى ثلاثة مسميات هى «البحر الأسفل» و«البحر المر» و«بحر الشمس المشرقة»، ومن الطبيعى تماماً بالنسبة لهم أن يسموا أى مكان فيه بالمكان الذى تشرق منه الشمس.

وباكتشاف هذا النص اكتسبت ديلمون أهمية بالغة لم تكن لها بمقتضى النص

الآشورى البابلى إذ أنها أصبحت المكان الذى يعيش فيه خالداً الرجل الذى نجا من الطوفان ، واليها لا بد أن يكون قد سعى جلجاميش للقاء هذا الرجل .

ولكن لماذا جعلت الآلهة زيوسودرا بالسومرية ، أو سرخاكيس بالأكادية ، أو أوتنابيشتيم بالبابلية والآشورية يعيش فى ديلمون ؟ ان الفلك لم يرس فيها بالتأكيد بل رسا حسب الأسطورة فى الجبال الواقعة إلى الشمال من بلاد ما بين النهرين فما الذى أتى به جنوباً إلى ديلمون ؟

الرد على ذلك واضح وسهل تماماً .. ان الناجى من الطوفان الممنوح حياة خالدة لا بد أن يعيش فى أرض الخلود التى لا يعرف فيها موت ولا مرض ، أى ديلمون حسب ما عرفنا من أسطورة انكى ونينخورساك .

زهرة الخلود

عثرت البعثة الدنماركية الأثرية برئاسة جيوفرى بيبى عند أقصى الطرف الجنوبى لجزيرة المنامة ـ كبرى جزر البحرين ـ على آثار قرية صغيرة تتميز بوجود أكوام كبيرة من المحار الفارغ فيها ، ثبت أنها جميعاً من محارات اللؤلؤ. وتفصل المنطقة التى تقع فيها هذه القرية عن الصحراء الجنوبية للمنامة سبخة كبيرة يتعذر السير فيها مما يشير الى ان المنطقة التى عثر فيها على محار اللؤلؤ الفارغ كانت فى الأصل جزيرة منفصلة مجاورة للشاطىء ، ثم حدث الاتصال بينهما لأسباب طبيعية .

ويرى جيوفرى بيبى فى كتابه « البحث عن ديلمون » ان هذا المكان لا بد أنه كان فى الأصل مستعمرة للغواصين القدامى ، وانهم كانوا ينشرون فيه صيدهم من المحار حتى يجف فى الشمس ويموت الحيوان بداخله ويتفتح المحار فيجمعونه ويبحثون بداخله عن حبات اللؤلؤ الثمينة .

وهذه طريقة قديمة فى صيد اللؤلؤ وهى معروفة فى أماكن مختلفة من العالم ولكنها ليست متبعة فى الخليج الحديث ، إذ ان الغواصين العرب فى العصور الحديثة كانوا لا يبرحون ظهر مراكبهم ، وبعد أن يحصلوا على اللؤلؤ يلقون بالمحارات الفارغة فى البحر مرة أخرى .

ولذا فإن هذه المستعمرة لصيادى اللؤلؤ لا بد أن تكون أقدم عهداً من الأسلوب المتبع حديثاً، مما يدل على أن صيد اللؤلؤ فى البحرين كان حرفة قديمة جداً. وقد تبين لبيبى بالفعل أن هذه المستعمرة يعود زمنها الى الألف الثالث قبل الميلاد نظراً لتماثل الفخار الذى عثر عليه فيها مع الفخار الذى عثر عليه فى معبد باربار، وهكذا يمكن القول باطمئنان ان البحث عن اللؤلؤ كان معروفاً فى البحرين خلال عصور السومريين والبابليين السحيقة.

والمعروف أنه وردت فى النصوص المسمارية التى عثر عليها فى «أور» اشارات الى استيراد «عين السمكة» من ديلمون، وهو تعبير يفسره العلماء بأنه يعنى اللؤلؤ.

وهذا يذكرنا مرة أخرى بملحمة جلجاميش..

ففى النص البابلى لملحمة جلجاميش نرى انه بعد أن يصل البطل جلجاميش فى بحثه عن الخلود إلى المكان الذى يعيش فيه أوتنابيشتيم ـــوالذى تبين لنا انه ديلمون من النص السومرى الناقصـــ وبعد أن يقص عليه أوتنابيشتيم قصة الطوفان يبلغه بأن ليس فى امكانه تحقيق الخلود، ولكن باستطاعته أن يجد تعويضاً جزئياً عن بغيته فى «زهرة تجديد الشباب»، فهذه الزهرة يمكنها أن تجدد الشباب ولكن المشكلة تكمن فى صعوبة الحصول عليها. وفى اللوح الثانى عشر والأخير من الملحمة يسر أوتنابيشتيم لجلجاميش بسر زهرة الخلود هذه، فيبلغه أنها موجودة فى قاع البحر أو ربما على وجه التحديد فى المياه العذبة «الابســـو» الـذى تحـــت ســطح الماء المالح، وكان على جلجاميش كى يصل اليها أن يربط أحجاراً فى قدميه ويغوص إلى قاع البحر حيث يقطف الزهرة السحرية. ثم يتخلص من الأحجار المربوطة بقدميه فيطفو مرة أخرى إلى السطح.

هذا النص يثير اهتماماً خاصاً لأن الطريقة التى اتبعها جلجاميش للحصول على هذه الزهرة السحرية هى نفس الطريقة التى كان يستخدمها غواصو اللؤلؤ المعاصرون أى بربط الأثقال فى أقدامهم، وعلى ذلك فالشك يكاد يكون معدوماً فى أن يكون المقصود بزهرة الخلود انما هو اللؤلؤ.

ومن المثير أن نلاحظ أن ثمة تقليداً كان شائعاً في مصر القديمة يعتبر اللؤلؤ اكسيراً للشباب والحياة الدائمة، إذ يقال ان الملكة البطلمية كليوباترا كانت تشرب اللؤلؤ مذاباً في النبيذ لتحافظ على ما تتمتع به من شباب وسحر وجاذبية.

وهكذا يبدو أن جلجاميش قد كوفىء في النهاية بما يعوضه عن مغامراته الشاقة ورحلاته المهولة، ففي ديلمون أرض الخلود عثر على الزهرة السحرية التي تمد العمر وتجدد الشباب، وإذا كان الخلود نفسه من حق الآلهة ووقفاً عليهم دون غيرهم من بني البشر فإن تجديد الشباب يبدو على الأقل أقصى ما يمكن لانسان أن يطمح اليه. ولكن قصة جلجاميش لا تنتهي للأسف بهذه النهاية المنطقية السعيدة. فنرى أن جلجاميش بعد أن يفعل كل ما أوصاه به أوتنابيشتيم ويحصل على الزهرة يتردد في أكلها ويقرر أن يستبقيها ويأخذها معه إلى وطنه كي يقتسمها مع كبار أهل مدينته أورك (الوركاء) حتى يتمتعوا جميعاً بالحياة الشابة المتجددة. ولكنه إذ يغفو إلى جانب غدير ليحصل على شيء من الراحة تخرج الحية من «ثغرة في الماء» وتأكل زهرة الخلود وبذلك تحرم الانسان من فرصة الشباب الدائم وتحصل هي عليه، ألسنا نري الحية تتخلص من جلدها القديم كلما هرمت وتستبدل به جلداً جديداً وشباباً دائماً؟

وهذا يذكرنا مرة أخرى بالعهد القديم حين حرمت الحية الجنس البشرى من فرصة الخلود والشباب الدائم في جنة عدن. وكانت سبباً في طرد الجنس البشرى إلى حيث الشقاء والفناء.

وهنا تنتهي ملحمة جلجاميش، والعبرة فيها واضحة: إذا كان الانسان لا يستطيع حتى أن يقاوم مجرد النوم فكيف به يأمل أن يقاوم الموت؟

ديلمون .. وأصل السومريين

تلخيصاً لما سبق نقول ان سكان بلاد ما بين النهرين القدماء. كانوا ينظرون إلى ديلمون التي ثبت أنها البحرين الحديثة نظرة مقدسة. والسومريون بالذات وهم أقدم صناع الحضارة في جنوب الرافدين كانوا يعدون ديلمون الجنة أو الفردوس المفقود حيث يوجد النقاء والطهارة والنظافة وحيث السلام الأبدى يعم المخلوقات

جميعاً من بشر ووحوش وطيور، وحيث لا مرض ولا موت ولا تقدم في العمر، فلا حاجة بالغادة أن تستحم لأنها نظيفة دائماً وكل ما حولها نظيف وطاهر. ولا تراق المياه المتلالئة على الأرض في الاستخدامات اليومية المعهودة لأن هذه المياه مقدسة تستخدم في الأغراض المقدسة وحدها (كما ثبت من حفـائر معبد باربار) وهذه المياه العذبة أوجدها انكي اله المياه الجوفية بطلب من نينخورساك ربة الأرض كي تتحول ديلمون إلى جنة وارقة الظلال تكسوها النباتات، أو بكلمة واحدة كان السومريون يعتقدون ان الآلهة باركت ديلمون ووهبتها المياه العذبة والنباتات والصحة والشباب الخالد، ويبدو أن هذا التصور كان له تأثير قوي على فكرة الجنة أو الفردوس في العهد القديم. ولذا كان من المنطقي عندما أنقذ انكي زيوسودرا من الطوفان، ومنحه انليل الخلود، أن تجعله الآلهة يعيش في المكان الذي لا يعرف الموت، أي في ديلمون، ولا بد أن يكون جلجاميش قد سعى اليها في بحثه عن الخلود متجشماً الأهوال والمشاق، ومتخطياً عقبات مستحيلة، وهناك التقى بالرجل الناجي من الطوفان، وسمع منه أسرار الآلهة، وقصة الطوفان العظيم الذي دمر البشرية، وهناك أيضاً غاص جلجاميش في أعماق مياه ديلمون كي يحصل على زهرة تجديد الحياة أو اكسير الشباب الدائم غير أن الحية عدوة الجنس البشري منذ الأزل تحرمه هذه الفرصة الفريدة.

كانت هذه هي نظرة السومريين بالذات إلى ديلمون كما تقول أساطيرهم صراحة، ولكن يبدو أن هذه النظرة قد اهتزت قليلاً لدى البابليين وغيرهم من الأقوام السامية التي ورثت ثقافة السومريين وحضارتهم ومنازلهم، ودليلنا على ذلك ان الأسطورة السومرية عن انكي ونينخورساك التي تذكر ديلمون كأرض مطهرة نقية لا وجود لها أو لما يماثلها في الأدب الأسطوري السامي اللهم فيما عدا تسرب فكرة الجنة مجردة إلى الأدب العبراني وغيره من الآداب السامية دون أن تحدد هذه الآداب الجنة بديلمون كما كان يفعل السومريون.

وهناك دليل آخر على اهتزاز صورة ديلمون كأرض مقدسة في نظر البابليين يتمثل في عدم ذكرها صراحة باعتبارها المكان الذي يقيم فيه أوتنابيشتيم الذي كافأته الآلهة بالخلود لانقاذ البشرية من الطوفان، فالنص البابلي الذي ورد في ملحمة جلجاميش يكتفي بالقول بأن الآلهة كافأت أوتنابيشتيم بالخلود وجعلته **«يعيش بعيداً هناك عند فم الأنهار»** ولولا أننا نعلم من شظية سومرية أن

جلجاميش سعى إلى ديلمون بالتحديد للقاء زيوسودرا ، بطل الطوفان السومرى ، لظل المكان الذى يقيم فيه نظير أوتنابيشتيم مجهولاً .

ويبدو أن تعامل البابليين والآشوريين الكثيف مع ديلمون فى مجال التجارة والرحلات البحرية قد قلّل من النظرة المقدسة إلى هذا البلد ، فالألفة تقلل من مشاعر التقديس والتكريم بل والاحترام بين البشر ، غير أن هذا التعليل غير كاف لتفسير قداسة ديلمون لدى السومريين ، وقد كان هؤلاء يتعاملون أيضاً مع ديلمون فى شئون التجارة والملاحة وغير ذلك من مجالات الحياة كما هو ثابت من النصوص السومرية ، فلماذا لم تقلل هذه العلاقات من نظرتهم التقديسية إلى ديلمون ؟ ولماذا اختار السومريون ديلمون بالذات لينظروا اليها هذه النظرة ؟

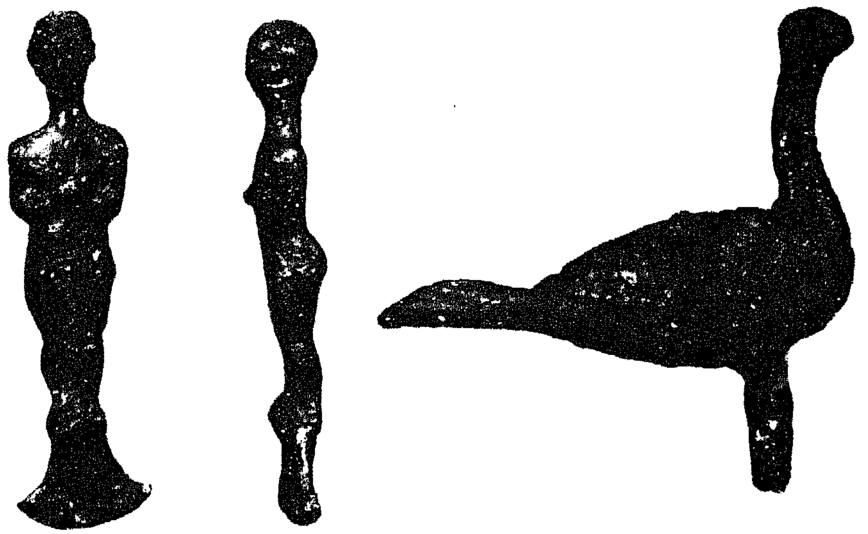
هذا سؤال لا بد أن يثور فى ختام بحث عن مكانة ديلمون فى الأساطير السومرية خاصة إذا علمنا ان السومريين قوم غرباء أصلاً عن المنطقة . انهم بكل تأكيد لا ينتمون إلى الارومة الجنسية السامية الأساسية فى منطقة الشرق الأدنى القديم ، ولكن تختلف آراء العلماء اختلافا بيناً فى تحديد أصلهم والمكان الذى جاءوا منه ، غير أنهم بكل تأكيد أيضاً كانوا قوماً متحضرين منذ أول مجيئهم ، فقد أحدثوا قفزة حضارية نوعية بالنسبة لنمط الحضارة الذى كان سائداً فى منطقة الرافدين قبل حضورهم ، ذلك النمط الذى تمثله حضارات ما قبل التاريخ المعروفة فى تلك المنطقة .

ان هناك أدلة لها قيمتها تفيد ان السومريين جاءوا إلى منطقة ما بين النهرين حوالى عام ٣٣٠٠ ق.م. قادمين من ديلمون فإن أساطيرهم تذكر أن جدهم الأكبر جاء من ديلمون وانهم نزحوا من هناك بعد طوفان ، ومن غير الواضح ما إذا كانوا يعتبرون أن ديلمون هى موطنهم الأصلى أم أنها كانت محطة على الطريق استقروا فيها مؤقتاً قبل نزوحهم الجديد إلى الشمال . ومن الثابت ان البحرين كانت بالفعل محطة مهمة تنزل فيها الأقوام المهاجرة الى الشمال ، فالكلدانيون جاءوا إلى بابل من المنطقة العربية الشرقية على ساحل الخليج فى أواخر الألف الثانية قبل الميلاد مروراً بديلمون ، ويقول هيردوت ان الفينيقيين فعلوا نفس الشيء وان مقابر البحرين الشهيرة فينيقية ، فليس ما يمنع منطقياً أن يكون

السومريون قبل هؤلاء جميعاً قد استقروا فى ديلمون حيث عرفوا السعة والطمأنينة ورغد العيش قبل أن تستجد ظروف أخرى دفعتهم إلى الهجرة إلى بلاد الرافدين.

وهذا الاحتمال يفسر دون شك تلك النظرة المقدسة التى ظلوا ينظرونها إلى ديلمون، فالإنسان يحن إلى موطنه الأول وينظر إلى طفولته كعصر ذهبى ولّى ولن يعود وكذلك الأقوام والجماعات فى عقلها الباطن الجماعى تنظر إلى عهدها الأول مثوى عظام الآباء والأجداد نظرة يملأها التقديس والاكبار، وتحلم بأيام هذا الموطن باعتبارها عصراً ذهبياً يختلف عن الواقع المعاش.

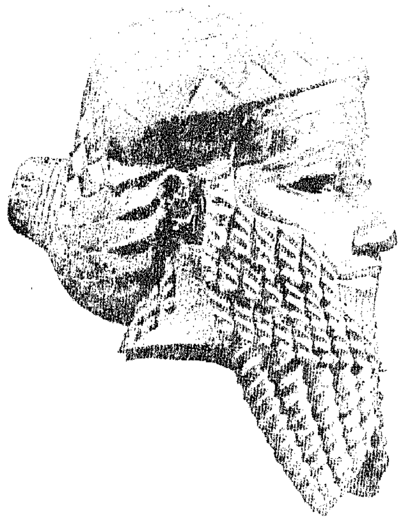
ومما له دلالة خاصة فى هذا الصدد أن بعض الأساطير السومرية تذكر ان انكى هو «صانع الانسان» وأنه فرض أن تكون ديلمون هى «دار الندوة» أو «مجمع الآلهة» لجميع البلاد السومرية. ومن المحتمل ان إنكى كان فى الأصل إلهاً محلياً فى ديلمون قبل أن ينتقل إلى سومر، وبعض العلماء يتصورون ان أسطورة انكى ونينخورساك التى تفسر أصل النباتات نشأت أصلاً فى ديلمون ثم انتقلت إلى بلاد ما بين النهرين، وهناك شواهد كثيرة على ان السومريين والبابليين (تأثراً بهم من بعدهم) كانوا يعتقدون انه فى فجر الزمن كانت الآلهة تقضى معظم أيامها فى ديلمون، كل ذلك من شأنه أن يعزز الاعتقاد بأن يكون السومريون قد توقفوا فى البحرين وأقاموا بها زمناً وهم فى طريقهم من موطنهم الأصلى المجهول إلى وادى الرافدين، وربما كان هذا الموطن بالتحديد هو أقليم وادى نهر الأندوس حيث ازدهرت حضارة هارابا وموهانجو دارو، وعلى أى الأحوال كانت الفترة التى قضوها فى ديلمون كافية لأن تظل حية فى ذاكرتهم بمياهها العذبة، وأشجارها الوارقة، كذكرى جنة قديمة أو فردوس مفقود.



بعض التماثيل الصغيرة المصنوعة من النحاس، عثر عليها في آثار معبد قديم بقرية «باربار» بالبحرين، وتمثل هيكلين بشريين وطائراً ربما كان نعامة أو طاووساً. ويرجع تاريخ هذه التماثيل إلى حضارة ديلمون.



ازدهرت صناعة الأواني الفخارية في حضارة ديلمون، واشتهرت قرية «باربار» القديمة بصناعة هذه الأواني. وفي الصورة نرى ثلاثاً من تلك الأواني عثر عليها ضمن الآثار التي اكتشفت في الحفائر الحديثة



رأس تمثال للملك سرجون الأكبر، يرجع تاريخه
إلى نحو عام ٢٣٥٠ قبل الميلاد



رأس ثور مصنوع من النحاس عثر عليه ضمن
آثار أحد المعابد القديمة بقرية « باربار»



بعض آثار أحد المعابد القديمة فى قريه «باربار» بالبحرين. ويرجع تاريخ هذا المعبد إلى حضارة ديلمون القديمة. وقد أعيد اكتشافه بمعرفة مصلحة الآثار بالبحرين



ختم دقيق الصنع عثر عليه ضمن آثار «باربار» نقش عليه منظر لاثنين من المحاربين المسلحين بينهما درع. وقد عثر على الكثير من الأختام المماثلة ذات أشكال مختلفة فى أغلب المواقع الأثرية بمنطقة الخليج العربى والمناطق المحيطة.



مقبرة متوسطة الحجم وتتكون من حجرتي دفن احداهما فوق الأخرى. وقد فتحت الحجرة العليا، أما الحجرة الدفن السفلى فلم تفتح بعد. ويرجع تاريخ هذه المقبرة إلى حضارة ديلمون. وهي واحدة من عشرات الآلاف من المقابر المماثلة الموجودة في البحرين.

بومبى وهركيولانيوم
مدينتان تحت رماد بركان

ضحايا بركان
ڤيزوف يتحدثون

فى عام ١٧٠٩ كان أحد الأشخاص يحاول حفر بئر بالقرب من مدينة «ايركولانو» الايطالية على سفح جبل ڤيزوف فانفتحت تحت معوله ثغرة نفذ منها إلى أطلال مسرح رومانى قديم. كان هو مسرح هركيولانيوم احدى المدن المفقودة التى دمرها بركان ڤيزوف عام ٧٩ ميلادية، ودفنت منذ ذلك الحين تحت طبقات كثيفة من الركام البركانى، حتى جاءت ضربات المعول غير المقصودة لتسلط عليها أول شعاع من الضوء فى مطلع العصر الحديث.

وطير الرجل النبأ إلى مدينة نابولى المجاورة، وسرعان ما خف إلى مكان الاكتشاف المثير نبلاء المدينة فنهبوا المسرح من كل ثرواته الدفينة؛ خلعوا واجهاته الرخامية المتعددة الألوان واستخدموها فى بناء ڤيلاتهم، وحملوا معهم التماثيل البرونزية والرخامية التى كانت تحلى أروقة المسرح. وقاموا باستخدام مئات العمال والسجناء بحفر أنفاق عديدة من مكان المسرح إلى وسط المدينة المدفونة على عمق ١٠٠ قدم تحت الأرض، حيث كانت تقوم البيوت والقصور والأسواق، فنهبوها أيضاً، وجردوها من محتوياتها.

وهكذا كان اكتشاف هركيولانيوم بمحض الصدفة عام ١٧٠٩ بمثابة فجر عصر التنقيب عن الآثار فى الزمن الحديث. كان مولداً لعلم «الاركيولوچى»! وكانت اطلال بومبى - وهى ظاهرة فوق الأرض - قد اكتشفت قبل ذلك فى أواخر القرن السادس عشر. وكذلك اكتشفت أطلال ستابيا، وهى المدينة الثالثة

التى دمرها بركان ڤيزوف، وظلت المدن الثلاث فى حالة حفظ جيدة تحت الركام البركانى إلى أن بدأت التنقيبات العلمية فى هذه المواقع الثلاثة، حوالى عام ١٨٦٠ . وعندئذ أخذت هذه الأطلال بما فيها من هياكل بشرية تقص قصتها المروعة تحت غضب البركان، وتكشف فى نفس الوقت عن شواهد ثمينة على الحياة اليونانية ــ الرومانية فى فجر العصر الميلادى .

اكتشافات جديدة

ان البحر يبعد الآن عن مدينة هركيولانيوم بحوالى نصف كيلومتر، وذلك نتيجة لتدفق الحمم البركانية التى غطت الشاطىء القديم بعمق ٢٠ متراً ، ولكن فى الماضى كانت حدود المدينة تقع على حافة البحر مباشرة. وخلال الأعوام القليلة الماضية أجريت تنقيبات فى أجزاء من هذا الشاطىء كشفت عن سور المدينة القديم وعثر فيه على عشر حجرات كبيرة مفتوحة من جهة الشاطىء ربما كان الغرض منها تخزين قوارب الصيد وأدواته. وفى هذه الغرف عثر الآن على أعظم الاكتشافات الأثرية فى هركيولانيوم منذ ضرب معول حافر البئر سطح المسرح القديم فى أوائل القرن الثامن عشر.

ففى بداية عام ١٩٨٢ بدأ عمال التنقيب تحت اشراف العالم الأثرى الايطالى جوسيبى ماچى يكتشفون الغرف الموجودة فى سور الشاطىء. ووجدت مليئة بهياكل أشخاص يبدو واضحاً انهم لقوا ميتة مفاجئة فى نفس اللحظة ، وهكذا تأكدت حقيقة إعصار الغاز الخانق الساخن الذى يفاجىء ضحايا البراكين ويشلهم عن الهرب ، وهى نظرية حديثة فى خصائص التدفقات البركانية لم تكن معروفة من قبل. كما بدا واضحاً ان معظم أهالى هركيولانيوم قد لقوا حتفهم فى الكارثة كزملائهم فى بومبى. وكان المعتقد من قبل ان معظمهم استطاع النجاة لقلة الهياكل البشرية التى عثر عليها فى هذه المدينة مقابل مئات الهياكل التى عثر عليها فى بومبى.

فى احدى هذه الغرف المكتشفة حديثاً عثر على اثنى عشر هيكلاً متكومين سوياً ، ويعتقد العالم جوسيبى ماچى انهم أفراد أسرة واحدة كانوا يحاولون الهرب : سبعة هياكل لأشخاص كبار منهم ثلاثة نساء، وأربعة هياكل لصغار، بالاضافة إلى هيكل طفل رضيع فى حضن هيكل كبير، كما لو كانت تخبئه أمه .

وإذا كان المنظر فى هذه الغرفة يثير الشفقة والرثاء، فإن المنظر فى غرفة مجاورة يثير الرعب، إذ ثمة هياكل متفحمة متقلصة فاغرة أفواهها متناثرة فى فوضى على أرضية الغرفة، من بينها هيكل حصان، ويعتقد العالم ماچى ان هؤلاء الأشخاص نزلوا على السلالم المقامة فى سور المدينة وهم فى حالة ذعر شديد ثم لجأوا إلى هذه الغرفة للاختباء فيها، ولكن ذلك لم يعصمهم من الكارثة.. لقد حبسوا أنفسهم داخل الفرن!

وفى غرفة ثالثة وجدت هياكل كثيرة لضحايا مصطفين فى نظام كما لو كانوا يطفون فى لجات من الماء، مما يشهد بأن الموت كان يأخذهم تباعاً كلما دخلوا الغرفة موجة بعد موجة.

ولم تفتح بعد بقية الغرف العشر خوفاً على محتوياتها من عوامل التعرية، ولكن على الشاطىء القديم، خارج الغرف، عثر على المزيد من الهياكل المتفحمة، تبلغ فى مجموعها زهاء ١٥٠ هيكلاً، منها هيكل لجندى رومانى وجد مسطحاً على الأرض وإلى جانبه سيفه وأدواته، هل كان يحاول السيطرة على حالة الذعر بين الهاربين وأن يبث فيهم شيئاً من النظام عندما دهمه الموت بدوره؟ ربما!. وفى داخل عظام أمرأة شابة عثر على عظام هشة لجنين فى شهره السابع.. كانت حبلى لقيت نفس المصير. وثمة هيكل لامرأة فى الخامسة والأربعين أسماها المكتشفون «سيدة الخواتم» إذ عثر فى أصابعها على خاتمين كبيرين مطعمين بالأحجار الكريمة المنقوشة، وإلى جانبها أسوارها وأقراطها، كانت أيضاً تحاول الهرب وهى فى أوج زينتها.

ومن أهم المكتشفات التى عثر عليها فى الشاطىء قارب رومانى مقلوب وجد فى حالة كاملة تماماً فيما عدا انه متفحم نتيجة لسع النيران، وينتظر أن يكشف هذا القارب الكثير من التفاصيل عن صناعة القوارب الرومانية فى القرن الأول الميلادى والتى لا يعرف عنها الأثريون المحدثون شيئاً. وقد عثر إلى جانب القارب على بقايا رجل ممسكاً فى يده بشىء كالمجداف هل يكون هو الملاح؟ وهل كان هذا القارب يقف عند حافة الشاطىء القديم يحاول أن يجلى بعض الفارين المذعورين؟ هل كانت «سيدة الخواتم» فى طريقها إلى هذا القارب مع آخرين عندما دهمهم الموت جميعاً؟

أسئلة كثيرة محيرة ينطق بها هؤلاء الموتى الذين بدأوا يتكلمون بعد صمت دام نحو ألفى سنة . وهى ثروة عظيمة القيمة من الناحية الأثرية ، إذ ليست هناك هياكل بشرية من العصر الرومانى ، فقد كان الرومان يدفنون موتاهم فى التراب ولا يعنون بحفظهم كما يفعل المصريون وغيرهم من الشعوب القديمة . وفجأة نعثر فى هذا الشاطىء القديم ــ المدفون كمقبرة هائلة ــ على عشرات الهياكل الرومانية السليمة الجيدة الحفظ التى تمثل مختلف الأنماط من رجال ونساء وأطفال وأشراف وأحرار وعبيد وجنود . ان هذه العظام ــ بعد تحليلها واستنطاقها ــ ستقول الكثير عن هؤلاء الناس وكيف كانوا يعيشون . وهذه المهمة تتولاها حالياً الدكتورة سارة بيزل عالمة الأجناس المتخصصة فى تحليل العظام القديمة ، والتى تقوم بمساعدة الدكتور ماچى فى أبحاثه .

وتتمتم الدكتورة سارة بيزل دائماً : من ذا الذى يقول ان الموتى لا يتكلمون ؟!

* * *

يمتد جبل ڤيزوڤ على خليج نابولى من كابرى وسورينتو إلى رأس ميسينو ، ويبدو بجرمه الأزرق الهائل وامتداده الكبير على خط الأفق مسيطراً تماماً على واديه وسفوحه .

وهذا الجبل يبدو فى ظاهره كريماً للغاية ، فعلى سفوحه تنمو أجود أنواع الكروم والأعناب حتى لقد اشتهرت المنطقة منذ أقدم العصور بانتاج النبيذ الجيد وكانت تقوم بتصديره إلى شتى موانى البحر المتوسط فى عصر الرومان كما أن أراضيه الزراعية على درجة عالية من الخصوبة وتنتج جميع أنواع الخضروات والفاكهة . أما فى باطنه فهو يضمر الغدر والدمار ، إذ انه من مناطق الدمار القديمة ، ولم يكن انفجار عام ٧٩ ميلادية هو الأول ولا الأخير ، فقد ثار بركان ڤيزوڤ بعد ذلك عدة مرات ولكن بعنف أقل ، وربما تكون أقوى هذه الانفجارات التالية انفجار عام ٤٧٢ م ، ثم انفجار عام ١٦٣١ الذى راح ضحيته ٤٠٠٠ شخص على الأقل ، وأخيراً حدث انفجار عنيف آخر عام ١٩٤٤ ، وهو هادىء من ذلك الحين ، ولكن فى عام ١٩٨٠ حدثت هزة أرضية عنيفة شلت الحياة فى نابولى وأصابت سكان المنطقة بالذعر ، وخلال عام ١٩٨٣ وقعت سلسلة أخرى من الزلازل دمرت معظم مبانى مدينة بوزولى المجاورة فهجرها حوالى نصف سكانها ،





▲

« السيدة ذات الخواتم » .. قفزت من فوق أسوار المدينة هرباً من نار البركان فماتت فى مكانها وغطاها الرماد . ومازالت فى أصابعها الخواتم الذهبية المرصعة بالجواهر

◄

أحد علماء الآثار يقوم بترميم القارب الرومانى الصغير الذى عثر عليه ضمن آثار بومبى .

ولا يستبعد العلماء احتمال ان تكون هذه الهزات مقدمة لانفجار بركانى جديد.

ولذلك فإن سكان المنطقة، وبخاصة مدينة هركيولانيوم الحديثة ــ التى أصبح اسمها ايركولانو ــ لم يعودوا يثقون فى سلامة منطقتهم، وهم يقولون: ان النار تحت بيوتنا!

مأساة بللينى الأكبر

ولكن منذ نحو ألفى عام لم يكن سكان سفوح جبل ڤيزوڤ لديهم مثل هذه المخاوف، كانوا يعيشون حياة رغدة هانئة داخل بساتينهم وحقولهم، ولا يشكون فى الغالب انهم يحيون فى حضن بركان، إذ ظل البركان هادئاً قبل ذلك أكثر من ٣٠٠عام.

وحتى العالم الطبيعى الرومانى العظيم بللينى الأكبر الذى كان يعيش فى ذلك الوقت فى إحدى جزر خليج نابولى فى بلدة تسمى «ميسنوم» لم يشعر بأى خطر عندما شاهد السحابة الكثيفة التى انبعثت من قمة الجبل فى ذلك اليوم المخيف ٢٤ أغسطس عام ٧٩م. واعتبرها شيئاً مثيراً للفضول ومستحقاً للدراسة، ولما كان بللينى الأكبر قائداً للأسطول الرومانى فى خليج نابولى لذلك فقد أمر إحدى السفن بنقله إلى الموقع ليشاهد هذه الظاهرة عن كثب ويساعد على اجلاء اصدقائه فى المنطقة إذا استشعروا الخطر.

ولكن بللينى الأكبر لم يرجع من تلك الرحلة المشئومة إذ حاصره البركان وقتله هناك، ونحن نعرف تفاصيل ما حدث من ابن اخته بللينى الأصغر الذى كان يراقب الكارثة مع أمه فى منزل خاله فى «ميسنوم» وربما يكون قد عرف بعض التفاصيل أيضاً من رفاق خاله الذين استطاعوا العودة ناجين، والواقع انه لولا كتابات بللينى الأصغر عن بركان ڤيزوڤ ــ والتى استطاعت النجاة من ظلام العصور الوسطى ــ لما كان أحد من ناهبى كنوز المنطقة فى القرن الثامن عشر قد علم أنهم ينقبون فى أنقاض هركيولانيوم وبومبى.

إذ كتب بللينى الأصغر فى رسالة بعث بها إلى المؤرخ تاسيتوس الذى كان يستفسر عن سبب موت بللينى الأكبر، يقول: «لم يكن واضحاً فى أول الأمر أى جبل تنبعث منه السحابة ثم علمنا فيما بعد انه ڤيزوڤ..».



موقع مدينتى بومبى وهركيولانيوم بالنسبة لبركان ڤيزوف



فاجأته عاصفة النار فانكفأ على وجهه ومات قبل أن يتمكن من الهروب

ويمضى بلليني الأصغر فى وصف الكارثة «التى دمرت أجمل بقاع الأرض على الاطلاق» والتى «يرتجف ذهنى بمجرد تذكرها» وكيف ان خاله الذى لم يكن يشعر بأى خوف مطلقاً سارع نحو «المكان الذى يفر منه الآخرون». وقد تساقط على سفينته بعض الرماد واعترضتها بعض الحمم الطافية فى الطريق. ولكنه بدلاً من أن يأمر بأن تعود السفينة ادراجها أمر بحارته بالتقدم حتى رست السفينة فى «ستابيا» إلى الجنوب من الجبل، خلال تلك الليلة حاول بللينى أن يزيل مخاوف مرافقيه قائلاً لهم ان «صفائح النيران العريضة وشعلات اللهب المتطايرة» من ڤيزوف ليست أكثر من «حرائق تسبب فيها الفلاحون بسبب ذعرهم». ثم أوى بللينى الأكبر إلى الفراش مطمئناً وترك رفاقه يتناقشون طول الليل فيما إذا كانوا يبقون معه أو يفرون بجلودهم. وفجأة بدأت المبانى تهتز بعنف وتتساقط أجزاؤها حتى ان بللينى ورجاله كانوا يحملون المخدات فوق رءوسهم لحماية أنفسهم من الأحجار المتساقطة.

وأشرق فجر الصباح التالى ٢٥ أغسطس، ولكنه كان «أكثف سواداً من أى ليلة عادية» وأخذت الأمواج العنيفة تضرب الشاطىء وتجعل الهرب عن طريق البحر مستحيلاً، وشعر بللينى بالتعب الشديد، وأخذ يسأل مراراً عن «ماء بارد» وفجأة دهمتهم «عاصفة من اللهب ورائحة الكبريت» فاطلق الجميع سيقانهم للريح فى محاولة يائسة للنجاة، أما بللينى الأكبر فقد سار معتمداً على ذراعى اثنين من العبيد ولكنه لم يلبث أن سقط مغشياً عليه على الأرض وهو يعانى الاختناق، وبعد يومين عثر على جثته فوق شاطىء «ستابيا».

كان بللينى الأصغر وأمه فى ذلك الوقت يراقبان الموقف على بعد ٣٢ كيلومتراً فى منزل الأسرة فى «ميسنوم» وشاهدا «سحابة سوداء مخيفة تتخللها هبات من النيران المتوهجة» تتقدم عبر الخليج، فلاذا بالفرار مع معظم سكان ميسنوم الآخرين، وعندما اقتربت السحابة وغطت سماء المنطقة «لجأ الكثيرون إلى الصلاة وطلب العون من الآلهة، ولكن البعض كان يعتقد ان الآلهة نفسها لم يعد لها وجود وان الكون قد هوى فى ظلام سرمدى إلى الأبد».

ولكن السحابة تبددت فى النهاية، وعاد ضوء النهار، وعندئذ رأى بللينى الأصغر ان «كل شىء قد تغير ودفن تحت طبقة من الركام الأشهب مثل كساء الثلج».

ويختتم بلليني الأصغر رسالته قائلاً «وبالطبع فإن مثل هذه التفاصيل ليست مهمة بالنسبة للتاريخ ..».

ولكن بلليني الأصغر كان مخطئاً في اعتقاده، فإن هذه التفاصيل كانت عظيمة الأهمية بالنسبة للتاريخ والچيولوچيا على السواء، فهي تعطي مفاتيح چيولوچية هامة لتصور ما حدث بالفعل في بومبي وهركيولانيوم كما يصفه شاهد عيان. وقد ثبت ان هذه التفاصيل تتفق مع المعلومات الحديثة التي أمكن الحصول عليها من انفجار بركان جبل سانت هيلين في عام ١٩٧٠.

كيف انفجر البركان؟

دكتور هرالدور سيجوردسون خبير البراكين من جامعة «رود آيلاند» وهو أحد مساعدي العالم الأثري الايطالي چوسيبي ماچي المشرف على أعمال التنقيب في شاطئ هركيولانيوم يعكف الآن داخل نفق في الركام البركاني لأخذ عينات من المخلفات البركانية لتحليلها، وهو يحاول أن يضع تفسيراً حديثاً لما حدث عند انفجار البركان في عام ٧٩م بما في ذلك وضع سيناريو لحظة بلحظة عن الطريقة التي أخذ بها ڤيزوڤ أرواح سكان المنطقة.

ويتصور دكتور سيجوردسون ما حدث على النحو التالي: حدثت سلسلة من الهزات الأرضية المتلاحقة لم تلبث ان اتصلت وصارت زلزالاً واحداً مستمراً، ثم سمعت انفجارات قوية قصيرة متعاقبة هي انفجارات الغازات التي فتحت فوهة البركان فوق قمة الجبل. وفي ساعة مبكرة بعد ظهر يوم ٢٤ أغسطس غطت سماء المنطقة «السحابة البللينية» نسبة إلى بلليني الذي شاهدها على شكل مظلة كبيرة من حيث يقيم في ميسنوم.

بعد ذلك سمع صوت انفجار كبير قوي تصاعد على أثره عمود من الحمم والنيران كالنافورة الضخمة ظلت تتصاعد حتى بلغت ارتفاع ٢٠ كيلومتراً أو أكثر، وخلال حوالي ٣٠ دقيقة أخذت الحمم البركانية تتساقط وتغطي كل أنحاء المنطقة بما فيها المدن الثلاث بومبي وهركيولانيوم وستابيا والمياه الساحلية، ولكنها لم تكن حمماً يابسة بل كانت عجينة من الصخر المذاب نتيجة للانصهار الشديد داخل البركان بحيث تحولت إلى ما يشبه الرغوة أو الزّبد وهو ما يطلق عليه الخفاف

البركانى، وهذا الخفاف فى حد ذاته أخف من أن يقتل أحداً ولكنه يتراكم بسرعة كبيرة تبلغ نحو ١٥ سنتيمتراً فى الساعة الواحدة.

وبعد نحو ٤ ساعات، أى فى ساعة متأخرة من بعد ظهر يوم ٢٤ أغسطس بدأت أسطح المبانى تنهار تحت ثقل طبقات الرديم البركانى كما أخذت تنطلق من فوهة البركان القذائف الصخرية المشتعلة وبعضها فى حجم القنابل الكبيرة وهى القذائف التى كان يحاول بللينى الأكبر ورفاقه أن يتفادوها بوضع المخدات فوق رءوسهم. وفى هذه المرحلة انقطع الرجاء تماماً فى البقاء وقرر أواخر المتثاقلين أن يهربوا بجلودهم من هذا الجحيم حتى لو قتلوا كغيرهم فى الطريق. كما أدى الانفجار إلى اظلام كامل قبل أن تغيب الشمس فى مستقرها بالبحر.

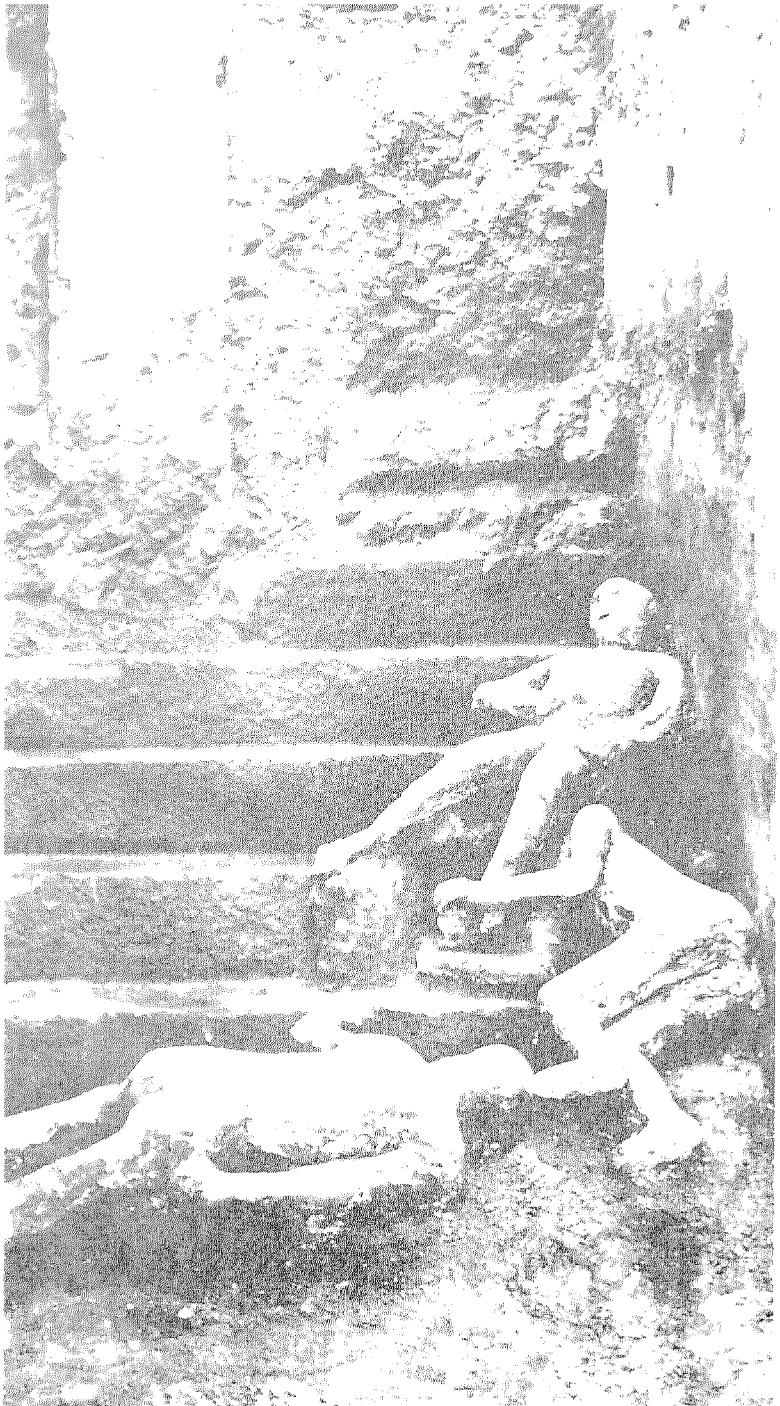
وفى ساعة متأخرة من الليل أخذ عمود اللهب المتصاعد يتناقص فى الارتفاع نتيجة للاتساع التدريجى لفوهة البركان وضعف قوة الدفع من باطن الأرض، وبدلاً من أن تتطاير الغازات الخانقة إلى أعلى أخذت تهب على سفوح الجبل، وهى تلك الهبات التى حاصرت سكان المدن الثلاث وقتلتهم وهم يحاولون الهرب.

جولة فى المدينة المحترقة

والذى يسير فى شوارع مدينة بومبى الآن يمكنه أن يشاهد هياكل الكثيرين من أهل المدينة ملقاة فى الطريق والحدائق، من بينها هيكل كلب مربوط فى سلسلة، وقد تم حقن هذه الهياكل بنوع خاص من المصيص لملء الفجوات المتآكلة والمحافظة على شكل الناس وأوضاعهم حيث ماتوا فى لحظات كربهم الشديد.

فمثلاً، فيما أطلق عليه «حديقة الهاربين» التى اكتشفت عام ١٩٦١ عثر على هياكل سبعة أشخاص كبار وستة أطفال يبدو كما لو كانوا يلهثون ويركضون وقد فاجأهم الموت جميعاً فى لحظة واحدة وهم يجرون عبر الحديقة المحترقة.

والمؤكد ان الكثيرين قد ماتوا فى مدينة بومبى لأنهم انتظروا أكثر من اللازم داخل بيوتهم، فمات البعض عندما انهارت عليهم سقوف منازلهم، ووجد آخرون أنفسهم محاصرين داخل الخفاف المتساقط ثم سدت عليهم الثغرات فماتوا باسفكسيا



ارتمى هؤلاء المساكين على درجات السلم عندما فاجأتهم عاصفة النار فماتوا فى لحظة خاطفة كلمح البصر

الخنق، أما الذين حاولوا الفرار فى النهاية فقد لحقت بهم هبات الغاز الساخن وصعقتهم على الفور.

ويقدر الخبراء عدد قتلى بومبى بأكثر من ألفى قتيل هم معظم أهل المدينة، والمعتقد ان الكثيرين منهم ما زالوا ينتظرون أن يكشف عنهم خارج أسوار المدينة.

فمن كان هؤلاء الناس.. سكان مدينة بومبى؟

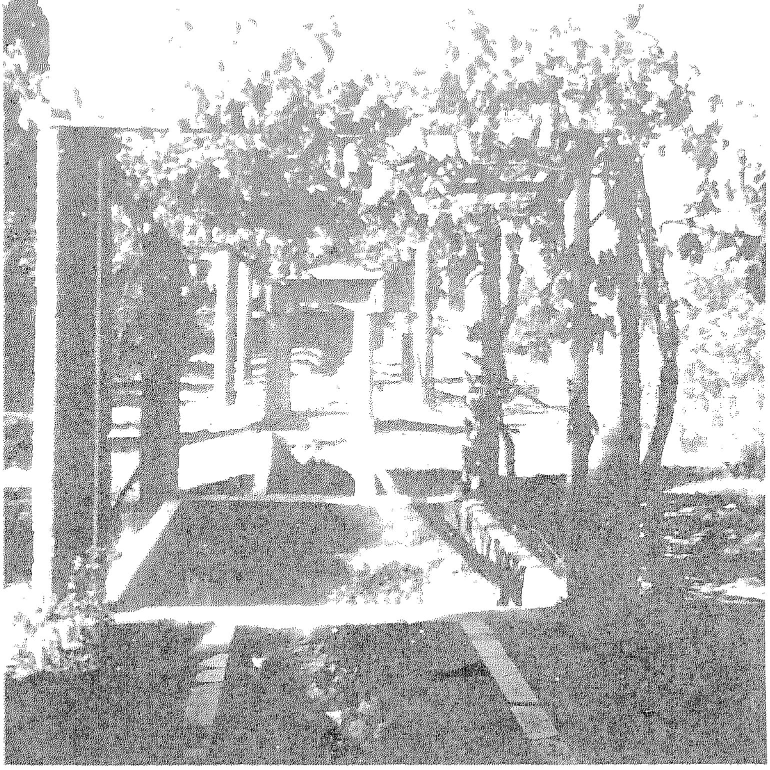
لا شك أن منهم الشعراء.. فقد عثر على مقطوعة شعرية مكتوبة على جدران بيت چوليوس بوليبوس أحد الضحايا.. المقطوعة كأنها تتنبأ بالكارثة اذ تقول:

لا شىء يدوم فى هذا الزمان اللانهائى
الشمس تشرق ساطعة
ثم تغيب فى البحر
والقمر يخبو بعد أن يكتمل
وعاطفة الحب المشبوبة
تتحول إلى نسيم رقيق

ولا شك ان كان منهم الخلعاء.. فقد عثر على «حانة» داخل المدينة وقد بعثرت فيها الأقداح البرونزية والمصابيح وقطع النقود، ومن بين ضحايا الحان ثلاث نساء يبدو أنهن كن يرفهن عن الزبائن فى الكبائن العليا فوق السلم. وعلى جدران الحانة كتبت دعاية انتخابية تدعو لانتخاب أحد المرشحين فى انتخابات قادمة.

وهناك أيضاً مقهى أو تاڤيرنا «لوسوريا» وهو ناد عام للقمار كان يغشاه الشبان والشابات، وعلى الحائط كتب صاحب المقهى ما على الزبائن من ديون، كما كان يتيح للمحبين من بينهم خلوات خاصة عند الطلب.

والمؤكد أن سكان بومبى كانوا لا يتحلون بالفضيلة، أو على الأقل كانت لهم معاييرهم الخاصة، اذ كانوا يقدسون جمال الجسم البشرى، ويبدو العرى فى نظرهم شيئاً طبيعياً، وهم قد زينوا منازلهم بتماثيل ورسوم تبدو للكثيرين منا الآن خارجة على الأخلاق.



إحدى الحدائق التي كانت ملحقة بقصر من قصور مدينة بومبى بعد أن أعيد تجديدها إلى ما كانت عليه قبل أن يدمرها البركان .

ويبدو أيضاً أنهم كانوا يهتمون بالحدائق اهتماماً كبيراً فيملأونها بالتماثيل والنافورات والأزهار والأرائك ، ويقضون فيها جزءاً كبيراً من حياتهم ، خاصة بعد زلزال ٦٢م اذ جعلوا لمعظم البيوت حدائق ملحقة بها ، كما كانوا يرسمون على جدران منازلهم صور الزهور والنباتات الكثيفة والطيور والوحوش البرية والأليفة .

كما يكشف أهل بومبى عن ولع خاص بالمسرح ، اذ زينوا جدران غرفهم بمناظر كثيرة مأخوذة من المسرحيات الشهيرة فى زمنهم ، ومنها مناظر كوميدية وتراچيدية ، وممثلون يؤدون حركات « بانتومايم » ، بالاضافة إلى مناظر مشتقة من الأساطير الأغريقية الشهيرة مثل : ميديا تجرد سيفاً لتقتل أطفالها .. بريام الشيخ يركع أمام أخيل طالباً الصفح عن ابنه هيكتور.. إيڤچينيا تستعد للتضحية والفداء .

و « الحمام » أيضاً كان من المرافق الهامة لدى أهل بومبى ، ولم يكن الحمام مقصوراً على عملية تنظيف الجسد ، وإنما هو أيضاً بمثابة ناد اجتماعى حيث يسترخى النزيل ويلتقى بأصدقائه ، ولا شك أن رجلاً مثل بللينى كان يعتبر أن قضاء عدة ساعات بعد الظهيرة فى الحمام جزء حيوى من نشاط كل يوم .

وقد كشفت التنقيبات فى هركيولانيوم عن واحد من أكبر وأفخر الحمامات الرومانية على الاطلاق وهو مقام على خليج بومبى (نابولى) مباشرة ، ويتكون من مدخل به نافورة وتمثال رقيق لأبوللو ، وغرفة بها مغطس بارد ، وأخرى بها مغطس حار ولها نوافذ من الزجاج يطل خلالها المستحمون على بانوراما كاملة للخليج ، ومكان يتسع لحمام سباحة صغير ملحقة به غرفات للراحة والاستجمام ومقابلة الأصدقاء .

وكان وسط المدينة فى بومبى بمثابة المركز الدينى والتجارى والإدارى للمدينة ، به معابد كثيرة لزيوس وچوبيتر وچونو ومينيرڤا وأبوللو وأكبرها معبد ڤينوس حامية المدينة ، وبه أيضاً مجلس المدينة ومكاتب الموظفين ومكان الاجتماع الشعبى وبازيليكا ومحكمة ومسرح بالإضافة إلى الأسواق والمتاجر والدكاكين ، وهناك أحياء راقية لسادة القوم تضم القصور والڤيللات الأنيقة وأخرى لاناس من متوسطى الحال أو الفقراء .

وتختلف هركيولانيوم عن بومبى فى شىء هام فقد غرقت هركيولانيوم فى المياه الجوفية التى انسابت من بركان فيزوف مما حفظ الكثير من آثارها خلافاً لبومبى التى غطاها الخفاف البركانى وكانت أرضها أكثرصلابة فتهشمت معظم آثارها نتيجة لعوامل التعرية ، ولذا حفظت لنا هركيولانيوم الكثير من أدوات الحياة اليومية القابلة بطبيعتها للتلف ، مثل قطع الأثاث كالأسرة والدواليب والموائد والكراسى ، والمواد الغذائية كالحبوب وأرغفة الخبز والبيض والخضراوات بل حتى عظام الدجاج ، فكثير من هذه الأشياء يمكن اخراجها بسهولة من تحت أرض هركيولانيوم لتعطينا مزيداً من التفاصيل عن الحياة الرومانية .

كما أن تربة هركيولانيوم الرطبة حفظت أيضاً الهياكل البشرية فى حالة أحسن ، إذ عندما تآكلت أجسام الضحايا كسا الطين العظام وحفظها بدلاً من أن تتخلف بينها ثغرات كبيرة كتلك التى حدثت لهياكل بومبى المغطاة فقط بطبقة من الخفاف البركانى حيث الأرض أكثر ارتفاعاً وجفافاً .

وتعكف عالمة الأجناس الدكتورة سارة بيزل على ترميم الهياكل العظمية التى عثر عليها مؤخراً فى هركيولانيوم ، وتبلغ نحو ١٥٠ هيكلاً عظمياً ، وتمر عملية الترميم بمراحل كثيرة تبدأ بوضع عظام كل هيكل على حدة فى صندوق خاص ، ثم تقوم الدكتورة بيزل بتنظيف الهياكل والجماجم والعظام وغسيلها وتجفيفها ، ثم تكسيتها بطبقة من الشمع لتحفظها من البلى ، وأخيراً تعيد تركيبها أو وصل الأجزاء المكسورة منها ، وعندئذ تكون صالحة للنقل إلى المتحف .

ومن الطبيعى أن يحكى كل هيكل منها قصة .

هذا هيكل لأمرأة عثر عليه تحت أسوار المدينة القديمة وأطلقت الدكتورة بيزل على صاحبته اسم « بورتيا المسكينة » ان جمجمة رأسها مهشمة ، وحوض الجذع الأسفل مكسور، وتقول الدكتورة سارة بيزل انها لا تشك فى أن هذه المرأة سقطت من حالق ، فوقعت على رأسها ، وأدت السقطة إلى تهشيمها وانغراس عظمة الفخذ فى ترقوة الكتف .. ربما قفزت من أعلى سور المدينة فى محاولة يائسة للهرب من الجحيم .

وتضيف الدكتورة بيزل : لا أدرى ما إذا كان فى امكانى أن أعيد تركيب هيكلها من جديد، ولكنى بالتأكيد سأعرف عنها الكثير، يمكننى مثلاً أن أحدد طولها بقياس احدى العظام الطويلة فى هيكلها. وسوف تدلنى حالة الحوض عن عمرها وعما إذا كانت فتاة أو سيدة، وما إذا كانت قد رزقت باطفال أم لا، بل يمكننى أيضاً أن أحدد ما إذا كانت جميلة إذا نجحت فى ترميم الجمجمة، أما عظامها فسوف تكشف عما إذا كانت جيدة التغذية أم سيئة التغذية، وعما إذا كانت قد أصيبت بامراض، وما إذا كانت تحيا حياة مرفهة أم كان عليها أن تعمل بيديها كى تعيش.

وهذا الملاح الذى وجد هيكله بالقرب من القارب، انه فى حوالى السادسة والأربعين من العمر، ويبدو انه كان عبداً رقيقاً، من الواضح انه لم يحصل فى حياته على معاملة طيبة، أو طعام طيب، أو أى شيء طيب، فلا يمكن أن يرضى انسان له ارادة أن يترك بدنه يعانى على هذا النحو، ان السحجات التى فى عظام يديه تدل على مدى الجهد الشاق الذى كان يقوم به، كما أن ستاً من فقرات عموده الفقرى ملتحمة فيما بينها مما يدل على حمل الأثقال.

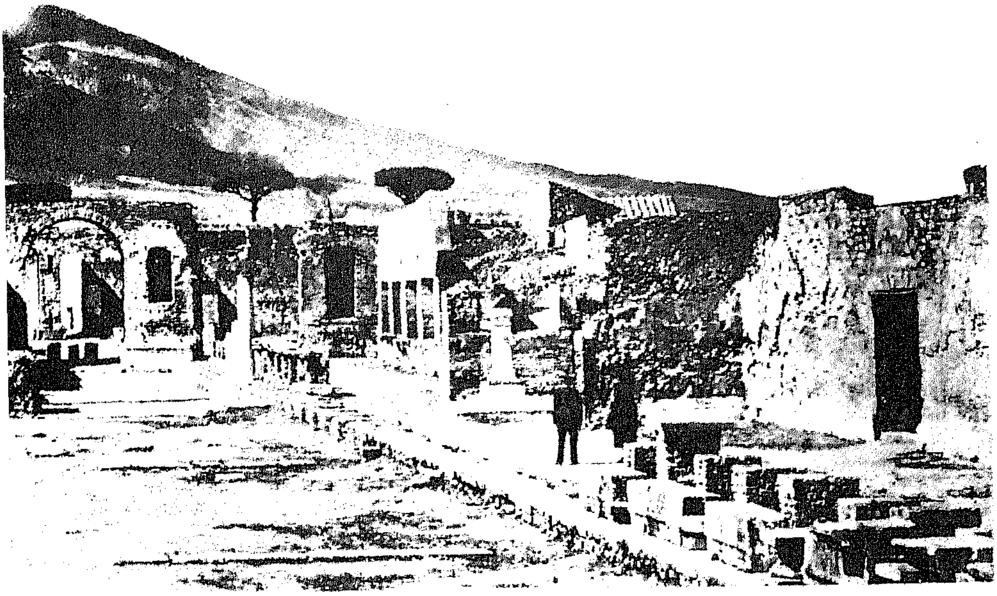
وقد قامت الدكتورة سارة بيزل حتى الآن بتحليل وترميم هياكل ٤٦ بالغاً و١٠ أطفال، وهى تعتقد انه فيما عدا العبيد كحالة الملاح السابق فان معظم سكان هركيولانيوم كانوا أصحاء الجسد، لا وجود لأثر الانيميا، كان لديهم ما يكفيهم للأكل، ولنأخذ مثلاً عظام الصندوق رقم ٤٦، انه الهيكل المسمى «بالسيدة الجميلة» ان أبعاد جمجمتها ونسب ملامحها تدل على مدى جمالها عندما كانت مكسوة لحماً، ولا تزال هناك خصلة من الشعر الأصفر ملتصقة بفروة رأسها.

ثم هذه السيدة الأخرى «سيدة الخواتم» من الواضح انها كانت امرأة طويلة القامة، جيدة التغذية، فى الخامسة والأربعين من العمر، ان أسنانها سليمة تماماً بلا أثر للتسوس أو الفجوات. ان هؤلاء الناس كانوا فى الغالب لا يكثرون من السكريات.

ولا تزال هركيولانيوم إلى اليوم تطالع الزائر بجو الاصطياف الرقيق الذى يسود



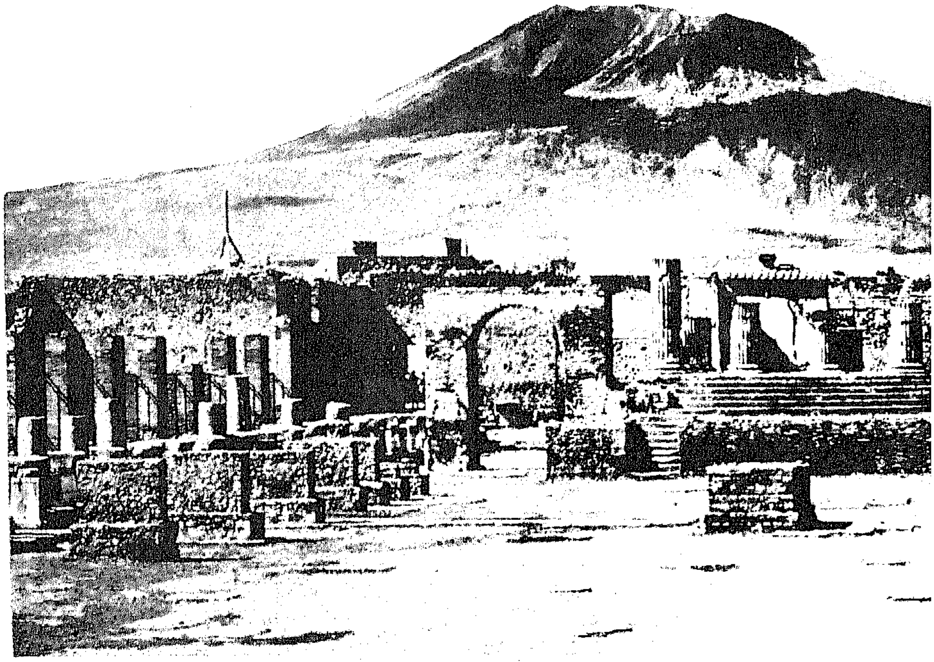
العالمة الانثروبولوچية «ساره بيزل» وهى خبيرة فى فحص الهياكل العظمية القديمة. وهى تقوم بفحص هيكل عظمى لأحد ضحايا انفجار بركان ڤيزوڤ فى مدينة هركيولانيوم



بعد إزالة تراكمات الغبار البركاني انكشفت ساحة السوق ومعبد جوبتر في مدينة هركيولانيوم

ان التيهور البركاني الذى يجتاح سفوح الجبل ينقسم بفعل الجاذبية الى مرحلتين هما « الهبة » و« التدفق » والهبة هى التى تضرب أولاً ، وهى عبارة عن سحابة صاخبة محملة بالغبار تهب بسرعة تتراوح بين ١٠٠ و ٣٠٠ كيلومتر فى الساعة وتبلغ حرارتها حوالى ١٠٠ درجة مئوية وهى درجة غليان الماء ، وتتكون من الغاز والرماد والفلزات الخفيفة وتأخذ شكل الزَّبَد ، ويتلوها فى الوصول « التدفق » البركانى وهو سائل طينى كثيف يحمل الصخور الكبيرة يتدفق من باطن الأرض عبر فوهة البركان وتصل درجة حرارته إلى ٤٠٠ درجة مئوية ويسير مثل النهر المشتعل ويتشعب إلى فروع طبقاً للملامح الطوبوغرافية للمنطقة ولكن سرعته تكون أقل إذ تتراوح بين ٢٠ و ٥٠ كيلومتراً فى الساعة .

والمعتقد انه أثناء الليل أحس سكان هركيولانيوم بالخطر المحدق نتيجة للانفجارات البركانية الأولى التى لم تبلغ المدينة بعد ، وعندما رأوا ألسنة اللهب تلعق حافة الجبل فى اتجاه مدينتهم فقدوا آخر قدر من رباطة الجأش وسارعوا إلى الفرار نحو منطقة الشاطىء ، وترك بعضهم أطفالاً صغاراً أو رضعاً فى شوارع المدينة مما يدل على أن كل فرد كان يحاول أن ينجو بنفسه ولم يكن لدى الأب أو الأم



وقتاً للعناية بالصغار، ولكن «الهبة» البركانية كانت أسرع منهم فأحاط بهم سرادقها من كل جانب والمؤكد انهم ماتوا جميعاً فى لحظة واحدة بمجرد وصولها، وقد وصلت هذه الهبة فى شكل اعصار رملى يغشى العيون ولا بد أن الناس قد انكفأوا على وجوههم يحاولون وقف تنفسهم حتى لا يملأ الهواء الساخن المحمل بالرماد رئاتهم، ولكنهم ما أن يضطروا إلى فتح أفواههم لالتقاط أنفاسهم حتى يندفع الهواء الساخن السام إلى رئاتهم ويمزقها من الداخل فيموتون اختناقاً، ولا شك أن البعض لقوا حتفهم نتيجة للطوب المتطاير وآخرين قد ماتوا وهم يلقون بأنفسهم من فوق أسوار المدينة إلى الشاطىء كما حدث لبورتيا المسكينة.

وبعد دقائق من انتهاء الهبة الأولى تبعها التدفق البركانى الذى تخلل المدينة كالسيل الملتهب ثم تجمع فى منطقة الشاطىء. وتوالت الهبات والتدفقات التالية وخلال عدة ساعات دفنت مدينة هركيولانيوم تماماً تحت طبقات الركام البركانى وامتد شاطىء البحر نحو نصف كيلومتر إلى الأمام. ويقدر خبراء البراكين انه كانت هناك ستة تيهورات بركانية على الأقل آخرها ذلك التيهور النهائى الكبير

الذى لفظ به بركان ڤيزوڤ آخر أنفاسه وكان عبارة عن سحابة ضخمة من الهباب الأسود أطفأت عين الشمس فى الساعات الأولى من الصباح واجتاحت كل خليج نابولى وهى التي دفعت بللينى الأصغر وأمه مع بقية سكان ميسنوم على بعد ٣٢ كيلومتراً إلى الهرب معتقدين انها نهاية العالم.

متحف الآثار

ويوجد الآن فى نابولى متحف للآثار يضم معظم الكنوز الفنية التى استعيدت من تحت انقاض مدن ڤيزوڤ والتى تصور الحياة الرزومانية فى تلك الأزمنة أدق تصوير. فى الدور الأول للمتحف توجد التماثيل الضخمة لڤينوس وأبوللو وهرقل التى كانت تزين يوماً المعابد والأماكن العامة فى بومبى وهركيولانيوم.. تلك الآلهة التى لم تستطع أن تفعل شيئاً لتنقذ ضحايا ڤيزوڤ لحظة الهول الشديد، وهناك تماثيل أخرى لماركيوس نونيوس باليوس نائب القنصل فى هركيولانيوم وغيره من الأشراف الأرستقراطيين الذين كانوا يوماً يتمتعون بمصيف هركيولانيوم الجميل وقد غرقوا فى اللذات المباحة والمحرمة ولم يكن يطوف بخلدهم انهم ملاقون هذه النهاية الأليمة. وفى الطابق الثانى من المتحف عرضت قطع الأثاث والبرديات ورسوم الجدران وفنون الموزايكو التى تكشف عن نسيج الحياة قبل ثورة ڤيزوڤ. ومن هذه الرسوم مدرس يؤدب تلميذاً بضربه بالعصا، وزوج وزوجته يجلسان على أريكة، ومجموعة من الفقراء تتلقى احساناً من الخبز، وحبيبان يشربان النبيذ وهما يتناجيان فى وضع مثير، وممثل تراچيدى يجلس القرفصاء وقد بدا عليه الاجهاد بعد أن انتهى من اداء دوره.. هؤلاء وأمثالهم ربما كانوا بين تلك الجموع الهائجة المائجة التى كانت تحاول الهرب عبثاً من ثورة الغضب البركانى وقد زاغت نظراتها من الذعر، وتجمدت فوق شفاهها اسئلة لا تجد جواباً: ايتها الآلهة.. لماذا يوجد كل هذا الشقاء فى العالم؟!

* * *

وعبر القرون التالية يأتى رد السؤال من لدن العليم الخبير:



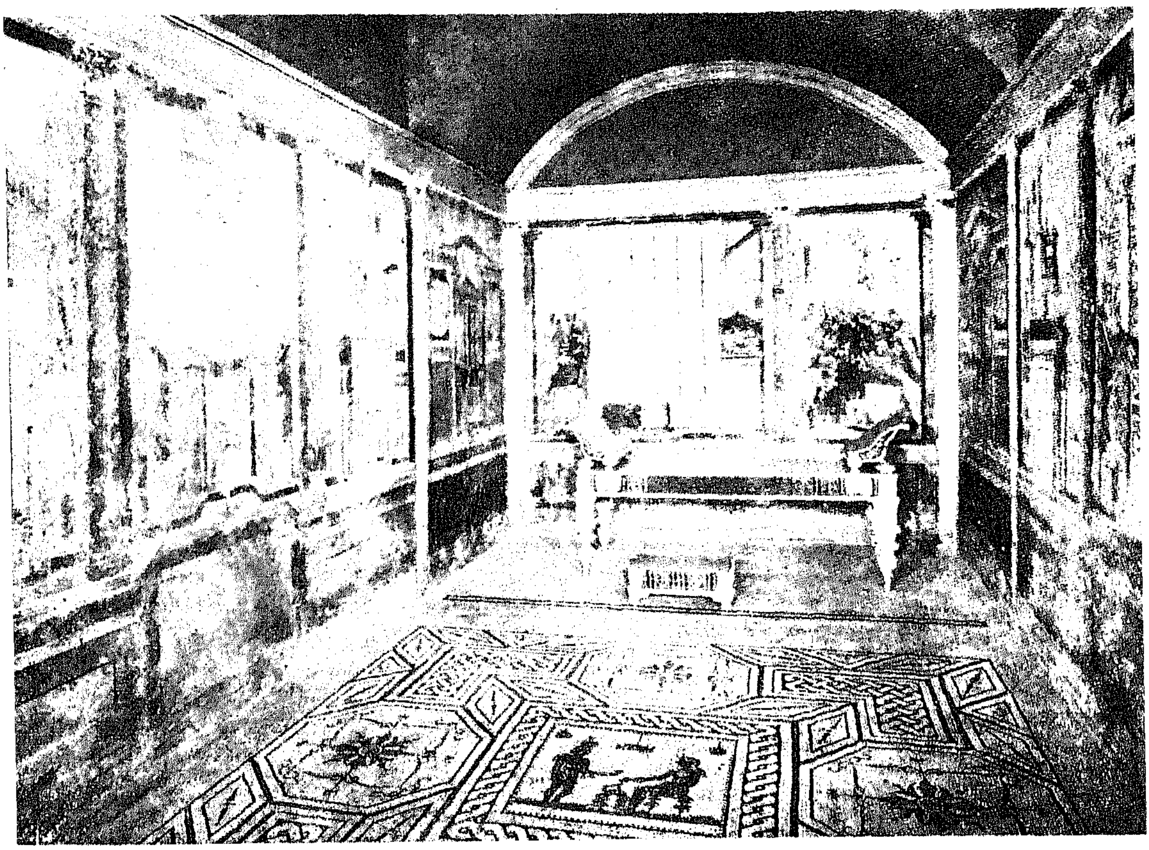
لوحة جدارية ملونة مرسومة على احد جدران غرفة بقصر من قصور هركيولانيوم القديمة .

(فكأين من قرية أهلكناها وهى ظالمة فهى خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد) .

(وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة ان اخذه أليم شديد) .

(وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون) .

ـ صدق الله العظيم ـ



تكوين طبق الأصل لقاعة بأحد قصور هركيولانيوم القديمة . وهى تبين فخامة القصور التى كان يعيش فيها أثرياء الرومان القدماء فى تلك المدينة المنكوبة [معروضة الآن بمتحف المتروبوليتان فى نيويورك]

حضارة الانكا القديمة

من حضارات الهنود الحمر

فدية
الملك اتوالابا

لم تكن هناك بلاد تبدو أكثر أمناً من تلك المملكة الرابضة بين مرتفعات الجبال فى نهاية العالم. انها مملكة الانكا فى جبال الإنديز بالقرب من الشاطىء الغربى لقارة أمريكا الجنوبية، ومكانها الآن دولة بيرو. ولكننا نتحدث هنا عما كان فى سالف الأيام عند مطلع القرن السادس عشر الميلادى.

كان شعب الانكا قد عاش فى منطقته المنعزلة النائية هذه زهاء ألف سنة على أقل تقدير تمكن خلالها من صنع حضارة راقية، فأنشأ امبراطورية عزيزة الجانب يحكمها ملك مطلق السلطات يلقب «بالانكا» ومن هذا اللقب جاء اسم الشعب الذى ينتمى إلى جنس الهنود الحمر الذين كانوا يعمرون الامريكتين قبل مقدم الرجل الأبيض. ولما كانت الأرض كلها جبلية وعرة لذلك فقد نحتها شعب الانكا على شكل شرفات متصاعدة يزرعون فيها محاصيلهم وأهمها «الكوكا». ونحتوا بين معارج الجبال شبكة من الطرق الممهدة تقفز فوق العقبات بواسطة جسور وانفاق غاية فى الدقة الهندسية. لم تكن أوربا نفسها تعرف مثل هذا التقدم الهندسى فى ذلك الحين، أما شعب الانكا فقد برع فى الهندسة والعمارة والحساب، وكان له تقويم شمسى دقيق يحسب دورة الافلاك السماوية إلى أقصى حد مستطاع من الدقة، وكانت له مدن زاهرة حصينة بين الغابات وذرى الجبال لا يمكن أن يقتحمها عدو، كما برع هذا الشعب فى فنون النحت وصناعة التحف والتماثيل وسبك المعادن.

عاصمة الانكا

كان الملك أو «الانكا» يقيم فى العاصمة كوشكو، وهذه العاصمة وكل المدن والعواصم الاقليمية الأخرى بنيت على نفس الطراز المعمارى.. ساحة كبرى تقوم فيها المبانى الرئيسية وهى قصر الملك أو مقر الحاكم الادارى والمعابد الدينية وأهمها معبد اله الشمس، وفى وسط الساحة التى تسمى «أوزنو» مبنى حجرى كبير تستخدمه فيما يبدو السلطات الملكية أو الكهنوتية للاشراف على الاحتفالات الشعبية فى الميدان الكبير، وهناك أيضاً قاعات حجرية مغطاة السقف مثلثة الشكل ذات فتحات كثيرة تؤدى الى الميدان تستخدم فى عقد الاجتماعات عند هطول الأمطار وعدم امكان الاجتماع فى الساحة المكشوفة. وهذه القاعات ذات الأسقف الحجرية المثلثة تسمى «هالانكا»

ولكن هذه المملكة الآمنة المطمئنة المتقدمة المنعزلة لم يكن لها أى اتصال بالعالم الخارجى، فلا أحد يأتى لها من الخارج ولا أحد من ابنائها يتجاوز جبال الانديز حيث يقيم. وفجأة جاءتها طرقة من الخارج.. طرقة من حضارة مختلفة تماماً.. الحضارة الأوربية.. فى شكل بعثة عسكرية استكشافية صغيرة من الجنود الأسبان.

كان الاسبان فى ذلك الوقت قد فتحوا معظم أمريكا الجنوبية فيما عدا جبال الانديز التى تقف شامخة مخيفة أمامهم فى الغرب، ووصلت هذه البعثة العسكرية الصغيرة بقيادة القائد الاسبانى بيزارو إلى مدينة «كاجاماركا» وهى عاصمة اقليمية للانكا فى شمال وسط الانديز فى عام ١٥٣٢م. كانت البعثة تضم أقل من ١٧٠ جندياً وعدداً قليلاً من المدافع والخيول، ولكن هذه القلة الضئيلة من الغزاة لم تكن تنقصها الروح الاستعمارية البغيضة وينطوى صدرها على أكبر قدر من القسوة والمخاتلة والغدر.

قدوم الأسبان

ووصلت أنباء الغرباء القادمين من وراء الأفق إلى العاصمة «كوشكو». وقرر ملك الانكا المدعو «أتوالابا» أن يذهب بكل حاشيته وجيشه الجرار إلى

« كاجاماركا » للقاء هؤلاء الغرباء. وليكن سلام ومحبة إذا خلصت نية القادمين، أو فلتكن هى الحرب.

وشعر القائد الاسبانى بيزارو أن لا قبل له بمواجهة هذا الجيش الجرار فوضع خطة جهنمية لأسر ملك الانكا لايقاع الفوضى فى صفوف جيشه الذى يبلغ زهاء ٨٠ ألفاً من المقاتلين بالحراب والسهام تمتلىء بخيامهم البطاح خارج المدينة.

أخذ الميدان الرئيسى فى المدينة يعج بآلاف من الخدم والموظفين والكهنة والجنود غير المسلحين الذين جاءوا استعداداً للاحتفال الرسمى باللقاء بين مليكهم وهؤلاء القادمين من العالم المجهول.

يقول بيدرو ابن عم بيزارو قائد الغزو: « رأيت كثيرين من الجنود الأسبان يبولون على أنفسهم دون أن يدروا من شدة الخوف » !

ولكن بالرغم من هذا الخوف قرر الاسبان استغلال عنصر المفاجأة لشن هجومهم الغادر، واستغل بيزارو مبانى الانكا فى الميدان الكبير « أوزنو » لتنفيذ خطته الجهنمية، فوضع بعض المدافع الصغيرة فى المبنى الحجرى المقام وسط الميدان للأشراف على الاحتفالات، كما أخفى رجاله فى القاعات ذات الأسقف الثلاثية والفتحات الكثيرة المسماة « هالانكا » والتى كانت على حد تعبير أحد الجنود الاسبان « كأنها صنعت خصيصاً لتناسب غرضنا ».

وعند اشارة متفق عليها مسبقاً هدرت المدافع وخرج الجنود الاسبان المختبئون فى القاعات وانهمرت النيران من البنادق على جموع الانكا غير المسلحين والذين لم يروا فى حياتهم ولم يتصوروا فى خيالهم مثل هذه الأسلحة التى تطلق النيران القاتلة فيسقط أمامها العشرات والمئات، فانتابهم الذعر واستبد بهم الهلع حتى ان البعض منهم ماتوا من شدة الرعب دون أن يصيبهم سلاح. أما الجنود الأسبان فقد انقضوا على هذه الحشود المذعورة المسالمة وأعملوا فيهم حصداً بسيوفهم وحرابهم وفئوسهم وبنادقهم ومدافعهم وداناتهم، ثم هجموا على محفة الملك وانتزعوه منها بعد أن قتلوا النبلاء الذين يحملون المحفة.

كتب أحد الجنود الاسبان فى مذكراته مفاخراً بهذا « النصر » يقول: « فى ظرف ساعتين كانت كل هذه القوات قد أبيدت، وفى ذلك اليوم كان السهل

يمتلىء بجثث ستة آلاف أو سبعة آلاف من الهنود ، وكثيرون آخرون جرحوا أو فقدوا اطرافهم » .

وكتب آخر يقول : « كان شيئاً لا مثيل له رؤية هذا الحاكم العظيم (الانكا) وهو يقع فى الأسر فى مثل هذه الفترة القصيرة بعد أن جاء فى قمة عظمته وقوته » .

بوقوع الملك فى الأسر تشتت كل جيشه وذهب هباء ، لأن الملك هو مركز العصب فى مجتمع الانكا ، وبدونه لا يمكن أن يصنع أحد شيئاً ، تماماً كمثل خلية النحل إذا فقدت ملكتها تبعثرت وهلكت ، ولذلك يقال دائماً ان فتح بيرو جاء نتيجة مثل هذه الحركة الشطرنجية فى أول اللعب : « كش ملك » ! .

كنوز من الذهب والفضة

سرعان ما شعر « اتوالابا » ملك الانكا الأسير ان هؤلاء الغزاة الغرباء لا يهمهم سوى شىء واحد هو الحصول على الذهب والفضة ، وفكر أنه يستطيع أن يفتدى نفسه بفدية كبيرة من هذه المعادن الثمينة ، فعرض على آسريه أن يطلقوا سراحه مقابل ان يملأ احدى حجرات القصر بالذهب مرة وبالفضة مرتين .

وأجابه الغزاة الى طلبه . وبعد الترتيبات اللازمة سرعان ما بدأت قوافل حيوان اللاما [وهو حيوان الحمل الوحيد الذى يعرفه شعب الانكا ويشبه الغزال] تخرج من كل شعاب المملكة وتقطع الطرق الملتوية الضيقة عبر جبال الانديز متجهة الى « كاجاماركا » حيث الملك السجين . كانت هذه القوافل تحمل أطناناً من الكنوز المعدنية الثمينة التى برع فيها شعب الانكا .. تماثيل رجال وحيوان وطيور وكئوس ذهبية وفضية ، ومجوهرات ومصاغ وموائد قرابين ذهبية ، وأوعية ضخمة مصنوعة من الذهب الخالص والفضة النقية ، بالاضافة إلى سبعمائة من الصفائح الذهبية الكبيرة التى كانت تزين جدران معبد الشمس فى العاصمة « كوشكو » . وجىء بهذه الكنوز الى الاسبان فدية للملك اتوالابا .

وكل هذه الأشياء الرائعة الثمينة سحقت دون رحمة ، وصهرت فى قدور ضخمة لتحويلها إلى سبائك من المعدن بواسطة الغزاة المتوحشين . وقد أرسلت بعض من

أحسن هذه التحف إلى اسبانيا ، ولكنها هناك لم تنج من نفس المصير، إذ أمر ملك الاسبان بصهرها أيضاً لسك العملة الاسبانية التى تحمل صورته.

من المحتمل أن تكون فدية الملك «اتوالابا» هى أكبر فدية دفعت فى تاريخ الانسان. ان كل ثروات امبراطورية الانكا التى جمعت خلال ألف سنة قد انهمرت فى هذا المكان كى تملأ الحجرة بالذهب مرة وبالفضة مرتين ، ولكنها للأسف لم تكن كافية لانقاذ حياة الملك ، إذ بعد أن حصل الأسبان على آخر حمل جاء به آخر حيوان من قافلة اللاما ، اقتادوا «أتوالابا» إلى الميدان العام فى «كاجاماركا» وأعدموه بزعم انه كان ينظم سراً هجوماً على الأسبان» !

وكانت هذه فرية كبرى ، فإن قواد الإنكا لم يجرءوا على مهاجمة «كاجاماركا» ومليكهم سجين فيها خوفاً على سلامته ، والحقيقة أن الأسبان ـ خاصة بعد أن وصلتهم تعزيزات جديدة وقرروا احتلال هذه الامبراطورية العظيمة التى اكتشفوها خشوا أن يطلقوا سراح الملك اتوالابا بعد أن دفع الجزية خوفاً من أن يتجمع رجاله حوله ويقوموا بهجوم ، كما خشوا أن يصحبوه معهم فى تغلغلهم داخل مملكته تحسباً من أى مفاجأة.

اتوالابا أسيرا

خلال فترة أسر الملك عرف الاسبان الكثير عن نظام الحكومة والمجتمع فى المملكة التى سيقدمون على غزوها ، وجدوا أن سلطة الملك مطلقة لا يمكن مناقشتها لأن عظمة الملك تستمد من انه ابن الشمس التى هى سبب حياة كل الناس ، ولذلك فان الملك يصبح بشخصه إلها يعبده الناس فى حياته ، تماماً كفراعنة مصر وأباطرة اليابان.

وقد لاحظ بيدرو بيزارو قائد الغزو الأسبانى بدهشة فائقة الطقوس التى تحيط بالملك «أتوالابا» حتى وهو فى الأسر، فعندما يأكل «كانوا يجلسونه على عرش خشبى صغير مصنوع من الخشب الأحمر المنحوت البالغ الجمال ومغطى بسجادة ناعمة رقيقة ، ثم تأتى سيدات جميلات يحملن الواناً مختلفة من الطعام على أوراق الأشجار الخضراء ، ويشير هو بأصبعه نحو اللون الذى يشتهى أكله ، فتتقدم احدى السيدات وتحمله بين كفيها وتطعم الملك بأناملها» ويضيف بيزاو فى مذكراته :

« .. وكان يأكل يومياً بهذه الطريقة وأنا حاضر، وبينا كانت احدى اللقمات ترفع إلى فم الملك سقطت قطعة صغيرة منها على الثوب الذى يرتديه ، فأعطى يده إلى احدى السيدات وقام مستنداً عليها وذهب إلى غرفته ليغير ملابسه . وعاد مرتدياً رداء طويلاً ذا لون بنى داكن وعباءة فضفاضة رمادية اللون ، فاقتربت منه ولمست العباءة ، كانت أكثر نعومة من الحرير، فسألته : يا إنكا من أى شىء يصنع رداء بمثل هذه النعومة والليونة ؟ فشرح لى أنه مصنوع من جلد الخفافيش التى تطير فى الليل .. وتعض المواطنين » ! .

وكل شىء يلمسه هذا الشخص المقدس يتم حرقه بعد أن يتركه حتى لا يلمسه غيره . وكتب اسبانى آخر يقول : « ان الملك لم يكن يبصق على الأرض عندما يريد البصاق ، بل تتقدم امرأة وتفتح كفيها فتتلقى بصقة الملك وتلعقها على الفور، وكذلك كانت النساء المحيطات به يرفعن من فوق ملابسه أى شعرات تسقط من رأس الملك ويأكلنها فوراً ، فسألناه : لماذا يحدث ذلك ، فقال لأنه يخاف من السحر، فإذا ذهبت أية ذرة من بصاقه أو شعرة من رأسه فانها قد تستخدم فى تدميره عن طريق السحر الأسود » ! .

وأى شخص يريد أن يمثل أمام الانكا حتى لو كان من القواد الأقوياء أو حكام الأقاليم أو الموظفين الكبار كان يتقدم نحوه حافى القدمين ويركع أمامه وهو يحمل فوق ظهره ثقلاً رمزياً حتى يسمح له الملك بأن يرفع رأسه .

وبالرغم من ان الانكا كان له حريم يضم عدداً كبيراً من أجمل النساء ، إلا أن الزوجة الملكية المكرمة هى أخته الشقيقة ، والابن الذى يأتى نتيجة هذا الاتحاد بين المحارم يعتبر الوحيد ذا الدم النقى الذى يمكن أن يرقى عرش الانكا بعد وفاة أبيه [نفس ذلك كان يحدث أحياناً فى مصر القديمة] ومن الغريب ان الأسرة الملكية أنجبت سلسلة طويلة من الحكام العظام بالرغم من هذا التزاوج الداخلى مع أن المعروف أن زواج الأقارب ــ دعك من المحارم ــ يأتى بنسل ضعيف .

* * *

تلك هى قصة فتح بيرو على يد الاسبان والقضاء على حضارة الانكا العظيمة التى تهدمت كبيت العنكبوت لدى أول لمسة من الرجل الأبيض ..

وكم فى التاريخ من عجائب عندما ترتطم الحضارات ! .

تياهواناكو .. مدينة الموتى

نحن نعرف الكثير عن حضارة مصر القديمة، واليونان، والرومان وغيرها لأن في امكاننا أن ندرس السجلات المكتوبة التي خلفتها هذه الحضارات، وأن نحلل مخلفاتها الأثرية، ولكن الوضع مختلف بالنسبة لحضارة «تياهواناكو» أو «مدينة الموتى» القابعة في أعلى جبال بوليفيا بأمريكا الجنوبية، فإن هذه الحضارة لم تخلف وثائق مكتوبة من أي نوع، بل ولم تخضع بعد للبحث الأثري الحديث. ان آثارها من التماثيل الضخمة والعمارة جميلة جداً، ومتقدمة جداً، ربما تتغلغل خمسة آلاف عام أو أكثر في أعماق الزمن، ولكننا لا نعرف شيئاً مؤكداً عنها، كما لو كانت قد سقطت كلية من صفحات التاريخ.

والمعروف أن منطقة بيرو وبوليفيا قامت فيها حضارة عظيمة هي حضارة الانكا التي شهد فصولها الأخيرة الفاتحون الاسبان والتي رأينا طرفاً من ثرائها وعظمتها عند الحديث عن فدية الملك أتوالابا كما ذكرنا سلفا. ولكن الحضارة التي نتحدث عنها هنا أقدم من حضارة الانكا بكثير ومختلفة عنها تمام الاختلاف وان كانت في نفس المكان، وقد ركز الباحثون والأثريون على دراسة حضارة الانكا باعتبارها أوسع نطاقاً، وأوفر آثاراً، وأقرب عهداً، وهذا هو السبب في أنهم أهملوا حضارة «تياهواناكو» التي تسبقها بعدة آلاف من السنين والتي تبدو أكثر منها غرابة وغموضاً.

مدينة أثرية مهجورة

ولكن لا تزال تماثيل الرءوس الحجرية الضخمة المقامة فوق هضبة بوليفيا تشهد بعظمة تلك الحضارة القديمة المجهولة، ان المنطقة الآن خالية قاحلة غير مسكونة، تعصف بها الرياح الباردة فتحرك صفحة مياه بحيرة «تيتى كاكا» المجاورة، ولكن أحداً من السكان المحدثين لا يصعد إلى هناك كى يعيش على ارتفاع ١٣ ألف قدم، والمنطقة تبدو بحق كما لو كانت مدينة موتى أو «تياهواناكو» وهو الاسم الذى يعرفها به الهنود الحمر بلغتهم المحلية المستمدة من لغة الانكا القديمة.

ونعرف من مصادر أخرى تعود إلى القرن الثالث عشر الميلادى أن «تياهواناكو» كانت مهجورة أيضاً فى ذلك الوقت، تماماً كما هى اليوم، وكان شعب الانكا حينئذ يعرفها أيضاً بهذا الاسم وكان يعتبرها كذلك مدينة موتى لجنس قديم مجهول.

وعندما وصل الفاتحون الاسبان إلى المنطقة فى عام ١٥٣٣ بقيادة فرانسسكو بيزارو كان كل ما يهمهم نهب الذهب والكنوز التى خلفها الانكا وعندما وجدوا أن مدينة الموتى تياهواناكو القائمة بأعلى الهضبة لا تعدهم بشىء من هذه الكنوز أهملوها وأعتبروها من بعض غرائب العالم الجديد.

وحتى نهاية القرن التاسع عشر كان عدد كبير من هذه التماثيل الضخمة لا يزال قائماً بين خرائب تياهواناكو، ولكنها تفرقت الآن بين متاحف العالم ومجموعاته الأثرية ولا يوجد منها الآن سوى عدد ضئيل من التماثيل الثقيلة التى يصعب نقلها، هذا علاوة على أن شعب الإنكا ومن بعدهم الهنود الحمر تعودوا أن يجعلوا من مدينة الموتى هذه محجراً يأخذون منه الأحجار التى يستخدمونها فى بناء

منازلهم، وأكثر من ذلك عندما شرع فى مد خط سكة حديد بوليفيا دمر العمال عدداً كبيراً من التماثيل ومبانى المدينة المهجورة لتمهيد الطريق أمام الخط الحديدى، ولهذا كله فإن المتبقى من آثار تياهواناكو ضئيل وان كان لا يزال يشهد بما كانت عليه عظمة الماضى.

وقد ركزت معظم البعثات الأثرية جهودها فى دراسة حضارة الانكا بأسفل الهضبة ولم يعن الكثير منها بتضييع الوقت فى مدينة الموتى. ولكن بعثة ويندل بنيت الأثرية عام ١٩٣٢ اكتشفت أدلة تفيد أن هذه المدينة المهجورة ترجع إلى خمسة آلاف عام على الأقل، كما اكتشفت أضخم تمثال فيها بالاضافة إلى عدة مصنوعات يدوية تدل على أن سكان هذه المدينة كانوا يتمتعون بدرجة عالية من الحضارة لا تقل تقدماً عن أعظم الحضارات القديمة المعروفة كالحضارات المصرية والبابلية والصينية والهندية، ولكن لم تعقب هذه الاكتشافات للأسف دراسات جادة متأنية وظلت مدينة الموتى مغلقة على أسرارها.

جهود آرثر بوزنانسكى

الرجل الوحيد الذى درس تلك الحضارة المجهولة بشىء من التأنى هو العالم الأثرى الألمانى آرثر بوزنانسكى، وكان قد ذهب إلى بوليڤيا فى مطلع هذا القرن لدراسة حضارة الانكا وهناك سحرته حضارة تياهواناكو لدرجة أنه قرر البقاء هناك، واكتسب الجنسية البوليڤية، وكرس حوالى خمسين عاماً من عمره لدراسة آثار تياهواناكو، وقد اقنعته دراساته بأن هذه الحضارة أقدم حضارات امريكا الجنوبية جميعاً وانها ربما تعود إلى عشرة آلاف أو عشرين ألف عام مضت، كما أنه تتبع نماذج من فنونها وفخارها فى منطقة شاسعة تمتد من شمال بيرو حتى جنوب الأرچنتين، واستدل من ذلك على أن تياهواناكو كانت امبراطورية فسيحة الأرجاء أو أن نفوذها الثقافى على الأقل كان متغلغلاً فى كل الشعوب القديمة المجاورة.

ويعتقد بوزنانسكى أن هضبة بوليڤيا التى تقع فوقها هذه الحضارة كانت فى الأصل فى مستوى البحر ثم حدثت تغييرات چيولوچية حديثة أدت إلى ارتفاعها الحالى إلى أكثر من ١٣ ألف قدم مما ساهم فى عزل مدينة الموتى عن المناطق المجاورة، وهذه التغييرات لم تدمر المدينة وإنما جعلت الحياة فيها أكثر صعوبة، وقد يكون هذا هو السبب فى أن سكانها هجروها. وقد لاحظ بوزنانسكى أنه ليس هناك مايدل على حدوث عملية إجلاء عنيفة فليست هناك آثار حريق أو كوارث طبيعية يعزى إليها اختفاء السكان، والأرجح انهم غادروا المدينة باختيارهم.

ولأن المدينة قد هجرت ولم تدمر لذلك لم يتخلف فيها ما يدل على الحياة اليومية التى كان يحياها سكانها ، لأن الدمار المفاجيء سواء كان نتيجة غزو أو حريق أو زلازل وبراكين يقطع مجرى الحياة فجأة فتقرأها العين فيا بعد ككتاب مفتوح ، أما انسحاب الحياة فى هدوء وتدريج فلا يترك مثل هذا الأثر، ومع ذلك ظل بوزنانسكى يعتقد أن بناة مثل هذه الحضارة العظيمة لا بد أن يكونوا قد تركوا رسالة ما لمن يأتى بعدهم ، وان الأمر يتوقف على مهارة الرجل الحديث فى اكتشاف هذه الرسالة ، ولكن قبل أن يصل بوزنانسكى إلى حل توفى فى عام ١٩٤٦ .

آثار تياهواناكو

ومن الحقائق الشيقة التى أسفرت عنها أبحاث هذا العالم الألمانى أن الهنود الحمر المعاصرين فى المنطقة يختلفون من حيث التركيب الجسدى والخصائص الفنية عن سكان تلك المدينة القديمة ، فإن الفخار والمصنوعات اليدوية التى عثر عليها فى خرائب تياهواناكو تدل على أن سكانها كانوا قوماً طوال القامة ، وكانت لهم خصائص مميزة تختلف تماماً عن خصائص سكان الهضبة المعاصرين ، كما أن حضارتهم لا تشبه أية حضارة لاحقة فى المنطقة والغريب انها كبيرة الشبه بحضارة المصريين القدماء .

من بين خرائب مدينة الموتى مبنى المعبد ، ويحيط به سور من الأحجار الضخمة القائمة كالعواميد ، وهذه الأحجار مصقولة ومتصلة بطريقة لم تستخدمها شعوب الإنكا ومن تلاهم من أقوام ولكنها نفس الطريقة التى كان يستخدمها قدماء المصريين فى صقل أحجارهم ولصقها سوياً . كما أن هذا المعبد يشبه فى تصميمه وتنفيذه مبنى الكرنك المصرى وان كان أصغر حجماً منه إذ لا يتجاوز خمس مساحته .

كما يوجد فى خرائب تياهواناكو تل أرضى ضخم عملت فيه عوامل التعرية والتخريب بشدة بدرجة أخفت الغرض منه ولكن يبدو أنه كان فى الأصل مغطى بكسوة من الأحجار الخضراء اللون المزينة بالرسوم المحفورة ، وتدل أبعاده على أن

قاعدته مربعة ، وفى منتصفه فراغ كبير مما دفع البعض إلى الاعتقاد بأنه كان فى الأصل مستودعاً للمياه ، ولكن هناك نظرية أخرى تربط بين هذا التل والمعبد المجاور وتفسر فراغ الوسط بأنه كان مبنى مجوفاً أو محشواً بالأتربة ، وتقترح هذه النظرية ان التل كان فى الأصل هرماً ، لا سيما أنه ليس من المألوف أن يكسى خزان مياه بأحجار مصقولة ومنقوشة .

ومن الآثار ذات السمات الفريدة التى عثر عليها أيضاً بين خرائب مدينة الموتى « تياهواناكو » قاعدة حجرية ضخمة منحوتة من قطعة واحدة من الحجر تزن حوالى مائة طن ، وكذلك أحجار كبيرة مصقولة ومشذبة تزن الواحدة منها عدة أطنان ومرتبة بطريقة تدل على خبرة هندسية عالية فى تصميمها وتحريكها ، والغريب أن هذه الأحجار الضخمة لا تنتمى إلى الكسوة الحجرية فى المنطقة ، ولم يعثر على الحجر الذى اقتلعت منه ، وان كان أقرب الأماكن المحتملة يبعد عن المنطقة خمسين ميلاً فى قلب الجبال .

بوابة الشمس

وقد لوحظ أن الطريقة المستخدمة فى لصق الأحجار بتفريغ الهواء فيما بينها هى نفس طريقة قدماء المصريين فى البناء ، كما أن النقوش التى خلفتها حضارة تياهواناكو ومن أبرزها تلك الموجودة على « بوابة الشمس » بالغة الدقة وتعبر عن كتابة مصورة ، وفى منتصف البوابة شكل رأس ربما كان يمثل اله الشمس ، ويعتقد العلماء أن هذا النص ربما يكون رسالة متروكة إلى الأجيال اللاحقة ولكن أحداً لم يصل إلى فك رموزها بعد ، وهذه النقوش التى خلفتها حضارة تياهواناكو ليس لها مثيل فى نوعها فى أى مكان آخر فى العالم الجديد .

وتمثل بعض الرسوم التى عثر عليها فى خرائب تياهواناكو القوارب المصنوعة من البوص التى كان يستخدمها أبناء هذه الحضارة للانتقال فوق صفحة بحيرة « تيتى كاكا » ، ومثل هذه القوارب يمكن أن تأتى من متحف مصرى فإن تصميمها وأبعادها وطريقة صنعها تماثل تماماً الطريقة التى كان يصنع بها القارب المصرى منذ أقدم العصور الفرعونية السحيقة .

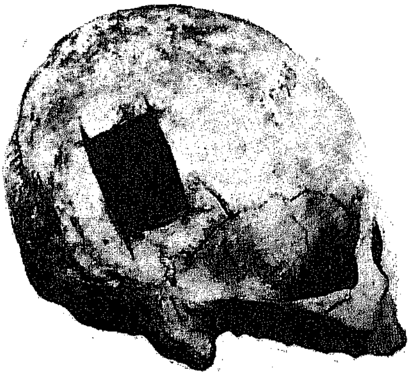
ويعتقد بعض العلماء ان هذه القوارب المتماثلة بين الحضارتين بمثابة «صدفة حضارية» ، إذ لما كان البوص الموجود على شواطىء بحيرة تيتى كاكا يماثل ذلك الذى ينمو على ضفاف النيل فمن المنطقى أن تؤدى نفس المواد الخام إلى نفس النتيجة فى الحضارتين رغم انفصالهما.

مصر وتياهواناكو

هذه النظرية فى «الصدفة الحضارية» يمكن قبولها بالنسبة للقوارب المصنوعة من البوص ولكنها لا تفسر بالتأكيد ذلك التشابه الضخم فى الأدوات الطبية والجراحية ! .

لقد كان أهل تياهواناكو يمارسون فن «التربنة» أى اجراء العمليات الجراحية فى المخ بعد فتح الجمجمة ، وهى عملية لا غنى عنها بالنسبة لحضارة تتعامل مع الأحجار الضخمة حيث من المألوف أن يسقط العمال فتشج رءوسهم ، وقد زاول أبناء هذه الحضارة ـــ كما يبدو فى صورهم ونقوشهم ـــ فن فتح الجمجمة لتخفيف الضغط على المخ أو إزالة قطع العظم المغروزة فيه ، وقد عثر على جماجم لهؤلاء السكان القدماء بين خرائب تياهواناكو أجريت فيها هذه العملية بنجاح ، وتدل على أن أطباء تلك الحضارة السحيقة كانوا بارعين فى عملهم ولديهم خبرة مدهشة فى فن التشريح .

ولكن أكثر الحقائق مدعاة للدهشة ان الآلات الجراحية التى كانت تستخدم فيها والمصنوعة من النحاس والذهب تماثل تماماً تلك التى كان يستخدمها المصريون القدماء فى نفس العمليات ، وقد تفسر نظرية «الصدفة الحضارية» مع التجاوز الشديد أن تكتشف حضارتان منفصلتان عملية التربنة رغم أن ذلك نادر للغاية ، ولكنها تقف عاجزة عن تفسير ذلك التماثل المطلق فى الأدوات الجراحية المستخدمة فى هذه العملية ، وهى عبارة عن سكاكين ومشارط وأبر ومبارد مصنوعة أساساً من النحاس وتدل فى حد ذاتها على تقدم هائل فى صناعة المعادن يتعذر اعتباره شيئاً مألوفاً بالنسبة للمجتمعات البدائية .

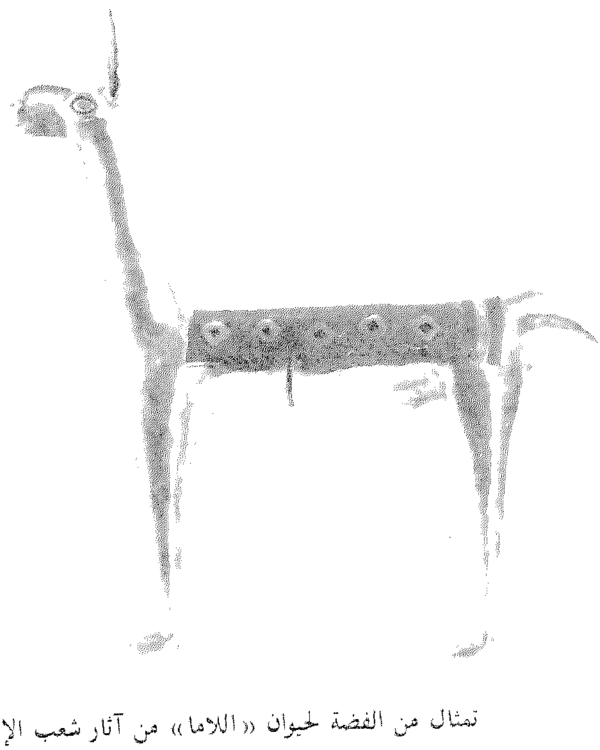


جمجمة لأحد الأفراد من شعب الإنكا وقد وجدت
بها آثار لعملية التربنة التى أجريت لهذا الشخص
بعد إصابته

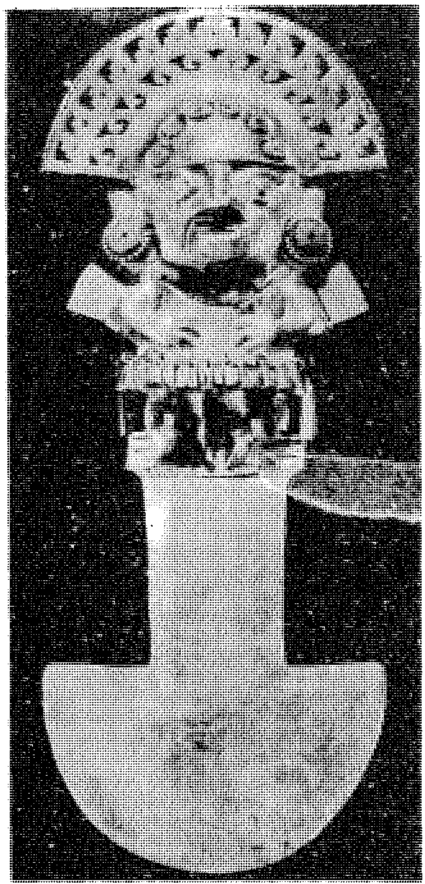
ان هذا التشابه الثقافى القوى بين مصر وتياهواناكو يوحى بوجود اتصال ما بينهما، ولكننا لا ندرى شيئاً عن ذلك على وجه التأكيد.. هل من الممكن أن تكون الحضارة قد ولدت فى «العالم الجديد» وانتشرت إلى مصر نتيجة لتغيرات چيولوچية أدت إلى انفصال قارة امريكا الجنوبية عن الشاطىء الافريقى الغربى خاصة أن هناك نظرية چيولوچية تقول بذلك؟ هل يمكن أن يكون بعض الرحالة المصريين القدماء قد وصلوا بطريقة ما إلى أمريكا الجنوبية ونشروا هناك حضارة مماثلة لتلك التى تركوها فى بلادهم على بعد آلاف الأميال؟ ان رحلات الرحالة النرويجى «ثورهايردال» قد أثبتت بالفعل امكان أن تقطع القوارب المصنوعة من البوص المحيط الأطلنطى، ولكن لا شىء مؤكد أو واضح، وتظل خرائب تياهواناكو من الظواهر التى يعجز العلم الحديث عن تفسيرها: كيف يمكن أن تنشأ حضارة تكنولوچية راقية فى مثل هذه المنطقة السحيقة من العالم؟ كيف قامت وسقطت تلك الامبراطورية الشاسعة التى سيطرت على كل أمريكا الجنوبية فى يوم ما؟ من هم هؤلاء المهندسون والعمال الأشداء الذين بنوا تلك المدينة الحجرية الجبارة فوق قمة هضبة بوليڤيا والتى نعرفها الآن باسم مدينة الموتى؟ من أين جاءوا وإلى أين ذهبوا؟ لا أحد يعلم!.



رأس تمثال منحوت من الخشب المدهون بالألوان المختلفة
والوحدات الزخرفية التى كانت شائعة فى فن شعب الإنكا

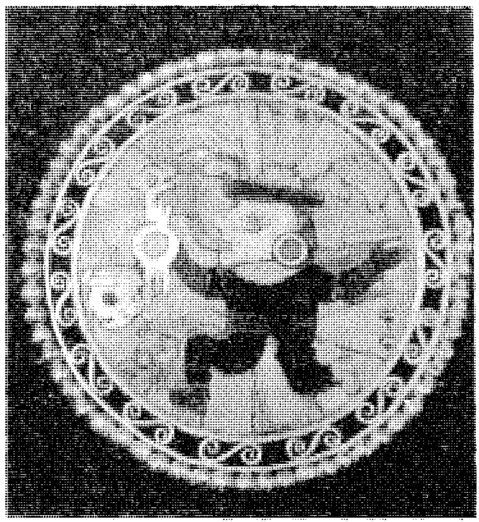


تمثال من الفضة لحيوان «اللاما» من آثار شعب الإنكا



صنع شعب الإنكا تحفاً رائعة من الذهب والفضة والمعادن المرصعة بالأحجار الكريمة. وهذه السكين كانت تستخدم في بعض الطقوس ولها نصل مصنوع من النحاس أما اليد فمصنوعة من الذهب على شكل رجل ــ أو ربما أحد الآلهة ــ ومرصعة بالفيروز. ويبلغ طول السكين نحو ٤٠ سنتيمراً


تمثال لأحد النبلاء من شعب الإنكا القديم


فردة حلق لتزين الأذن محلاة برسم لجندى محارب من شعب الإنكا. وهى مصنوعة من الذهب المرصع ويبلغ قطر هذا الحلق نحو ٧,٥ سم



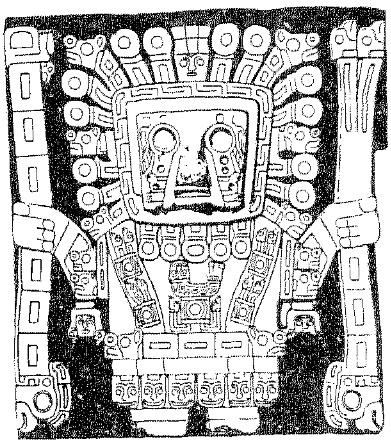
صورة متخيلة للملك أتوالابا
رسمها فنان أسبانى قديم



رسم تخيلى لعملية اعدام الملك أتوالابا التى نفذها الأسبان بقيادة بيزارو



الإله الباكى بالدموع فى تياهوا ناكو ــ مدينة الموتى



أحد الأعمدة الضخمة فى تياهوا ناكو،
وهو منحوت على شكل وجه رجل

كوارث كونية
وخطر الابادة الذرية

رسالة تحذير
من ماضى سحيق

لم تعد القوة التدميرية للتكنولوجيا العلمية الحديثة وأسلحة الدمار الشامل خافية على أحد من سكان هذا الكوكب. ان هذه القوة أصبحت كافية ـ كما هو معلوم ـ لتدمير كل ما على سطح الأرض من مظاهر الحياة والمدنية، واهلاك كل كائن يتنفس من انسان وحيوان ونبات، ربما فيما عدا العقارب التى قيل ان الاشعاعات النووية لا تؤثر فيها..

والمتفائلون يقولون ان التوازن الذرى فى العالم المعاصر كفيل بعدم اطلاق هذه القوة من عقالها، وعلى هذا التوازن يعتمد مصير البشرية سواء كان صعوداً بانتاج المزيد من الأسلحة الفتاكة أو هبوطاً بالتوصل إلى اجراءات للخفض المتبادل والمتوازن لأسلحة الدمار الشامل لدى الكتلتين.

ولكن الواقعيين لا يشاركونهم هذا التفاؤل، فان انطلاق هذه القوة التدميرية من عقالها قد لا يتوقف على ارادة الطرفين وحسن تقديرهما لصالح البشرية، بل قد يأتى عفواً نتيجة للخطأ أو سوء التقدير أو اليأس أو الرغبة المرضية فى الانتحار الجماعى. وعندئذ تنطلق ألسنة اللهب الذرى لِتلحس سطح الأرض، وتبيد من عليه كل شىء، ربما فيما عدا العقارب!.

وقد عقد مؤخراً فى واشنطون مؤتمر ضم زهاء مائة من العلماء المتخصصين فى علوم الطبيعة والاحياء والارصاد الجوية لبحث أحوال «العالم بعد الحرب النووية».

وجاء فى تقرير المؤتمر الذى أذاعته وكالات الأنباء ونشرته الصحف فى شهر نوفمبر ١٩٨٦ ..

ان ألف مليون شخص سوف يموتون فوراً فى حالة وقوع حرب نووية يستخدم فيها نصف المخزون فقط من الأسلحة النووية وذلك بفعل السحابة النووية الضخمة التى تتصاعد فى شكل عش الغراب .

وأن ألف مليون شخص آخرين سوف يموتون بعد ذلك موتاً بطيئاً بعد مقاساة حروق وآلام بالغة .

أى أن حوالى نصف سكان الأرض سيموتون فوراً أو صبراً فماذا عن النصف الباقى؟ هؤلاء سيكونون أسوأ مصيراً بحياتهم فوق هذا الكوكب الذى سيعانى اختلالاً رهيباً فى توازنه البيئى ..

فالهواء سيصبح مشبعاً بثانى أكسيد الكربون والسيانيد السام وتسقط أمطار ملوثة بالاشعاع الذرى فى كل مكان فتصيب الاحياء بالسرطان والأمراض والعقم، وتتكون سحب من الدخان والضباب وتتلف طبقة الأوزون المحيطة بالكرة الأرضية التى تمتص الزائد من الأشعة فوق البنفسجية مما يتسبب فى الاصابة بسرطان الجلد .

وسوف تؤدى الانفجارات إلى ارتفاع سحابة من السناج (الهباب) يقدر وزنها بمائتى مليون طن إلى ارتفاع ثلاثة أميال فوق سطح الأرض، وهذه سوف تمتص ٩٩ ٪ من أشعة الشمس فتغرق الأرض بالتالى فى ظلام دامس وتتوقف عملية التمثيل الضوئى اللازمة لنمو النباتات والمحاصيل .

وبعد انتهاء لفحة الحريق التى تقدر حرارتها بآلاف الدرجات المئوية سوف تثبت درجة حرارة الجو عند ٥٥ درجة مئوية مما يقضى على معظم أشكال الحياة الحيوانية والنباتية . ثم تنتهى الموجة الحرارية وتأتى موجة من البرد القارس فتتجمد أسطح البحار والمحيطات والأنهار أو مايسمى بالشتاء النووى .

وأكد المؤتمر انه لن تنجو أية بقعة من الأرض من هذه الكارثة الشاملة غير أن النصف الجنوبى من الكرة الأرضية سيكون أبطأ تعرضاً للضرر المباشر من النصف الشمالى على فرض وقوع أغلب الانفجارات فى النصف الأخير، غير أن حركة

الرياح والتيارات الهوائية لن تلبث أن تنقل الموت والدمار إلى كل أنحاء النصف الجنوبى فى النهاية .

* * *

هذا هو بعض ما ورد فى التقرير الخطير عن مؤتمر « العالم بعد الحرب النووية » . وفى هذه الأيام بالذات التى نشهد خلالها تصعيداً جديداً للخطر الذرى ما أحرانا أن نعطى هذا التحذير آذاناً صاغية ..

انه تحذير يأتى من ماض سحيق .. من فجر البشرية أو طفولتها المبكرة .. قبل اختراع الكتابة التى بدأ بها التاريخ ، ولكنه ظل عالقاً فى الأذهان تتناقله الأجيال والأقوام والأمم والحضارات إلى أن سجلته الأقلام بعد مضى آلاف السنين .

* * *

فى تراث كل الشعوب القديمة نجد أساطير عن كارثة عامة محقت البشرية ولم تترك على الأرض سوى عدد قليل من الاحياء الذين ينجحون فى الهرب من الكارثة على نحو ما .. كالاختباء فى كهف أو اللوذ بقمم الجبال أو النجاة بسفينة أو قارب فوق مياه الطوفان . وفى معظم هذا التراث نجد أن الناجين هم عادة فرد واحد مختار من العناية الالهية تصحبه امرأة أو امرأتان ، وفى بعض الأحيان عائلات بأكملها وسلالات منتقاة من الحيوان والطيور، وفى كل الأحوال نجد أن هؤلاء الناجين يبدأون تلك المهمة الصعبة وهى ارتقاء سلم الحضارة من جديد . .

فى السجلات القديمة لمصر وبابل والهند والصين ، وميثولوجيا اليونان والرومان ، وأساطير المايا والإزتك ، وقصص التوراة والقرآن ، وحواديت النرويج وفنلندا ، وموروثات القبائل الافريقية والاسترالية ، نجد نفس القصة مهما اختلفت الشعوب وتباعدت البلاد ابتداء من السلتيين فى بريطانيا إلى الموار فى نيوزيلندا .

وتأخذ الكارثة أحياناً شكل طوفان يعم العالم كله ، أو زلازل وبراكين حارقة مدمرة ، أو ريح صرصر عاتية ويحدثنا القرآن الكريم عن هذه الأنواع الثلاثة من الكوارث التى حلت بالشعوب البائدة ..

فقوم نوح اهلكوا بالطوفان ..

(ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة الا خمسين عاماً فأخذهم الطوفان وهم ظالمون . فانجيناه وأصحاب السفينة وجعلناهم آية للعالمين) .

[العنكبوت : ١٤ ــ ١٥]

وقوم صالح اهلكوا بالزلازل والبراكين ، أو ما يعبر عنه القرآن الكريم أحياناً بالرجفة أو الصيحة أو صاعقة العذاب الهون أو الدمدمة ..

(كذبت ثمود بطغواها . اذ انبعث اشقاها . فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها . فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنوبهم فسواها . ولا يخاف عقباها) .

[الشمس : ١١ ــ ١٥]

وقوم هود اهلكوا بريح صرصر عاتية ..

(كذبت عاد فكيف كان عذابى ونذر. إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصرا فى يوم نحس مستمر. تنزع الناس كأنها أعجاز نخل منقعر. فكيف كان عذابى ونذر) .

[القمر : ١٧ ــ ٢١]

ولا مساس بقدرة الله فى القول بوجود سبب طبيعى لهلاك هؤلاء الأقوام لأن الله تعالى هو خالق الأسباب والمسببات جميعاً .

* * *

وفى العهد القديم اشارات عديدة إلى كوارث ماحقة أصابت البشرية ، منها على سبيل المثال ما ورد فى المزمور ١٨ : ٧ ــ ١٥

« فارتجفت الأرض وارتعشت . أسس الجبال ارتعدت وارتجت .. صعد دخان من أنفه ونار من فمه أكلت . جمر اشتعلت منه .. أرعد الرب من السماوات . والعلى أعطى صوته بردا وجمر نار. أرسل سهامه فشتتهم . وبروقاً كثيرة فأزعجهم . فظهرت أعماق المياه وانكشفت أسس المسكونة » .

وتحكى لنا أساطير كاشيناوا — وهم أقوام بدائية فى غرب البرازيل — عن زمن حدث فيه أن «لمع البرق، وقصف الرعد بشدة فأخاف كل أحد، ثم انفجرت السماء وتساقطت قطعاً فقتلت كل شىء وكل شخص، وتبادلت السماء والأرض مكانيهما، ولم يبق فوق سطح الأرض كائن يتنفس».

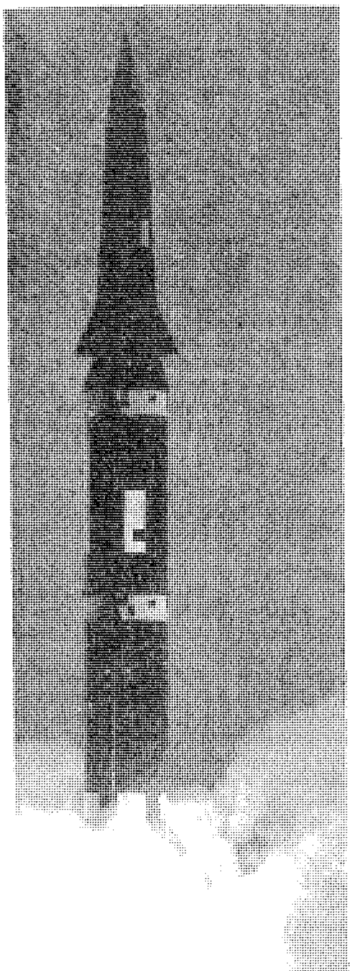
كما تحكى أساطير الهنود الحمر شوكتاو فى أوكلاهوما بشمال أمريكا عن زمن حدث فيه أن «غاصت الأرض فى ظلام دام لمدة طويلة ثم ظهر ضوء ساطع فى الشمال ولكن تبين أنه أمواج فى ارتفاع الجبال تقترب بسرعة رهيبة لتغرق كل شىء».

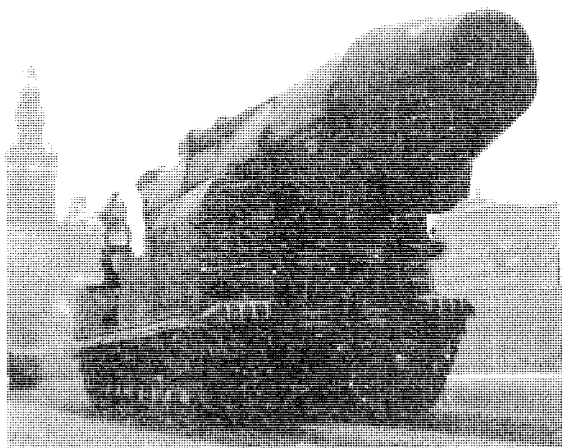
وقبائل الساموا فى جنوب الباسفيكى لديها أسطورة تقول: «وانبعثت رائحة.. وتحولت الرائحة إلى دخان.. وتحول الدخان إلى سحاب.. وارتفع البحر، وفى كارثة مهولة هبطت الأرض تحت البحر.. ثم ظهرت الأرض الجديدة (أرض ساموا) من رحم آخر قطعة من الأرض».

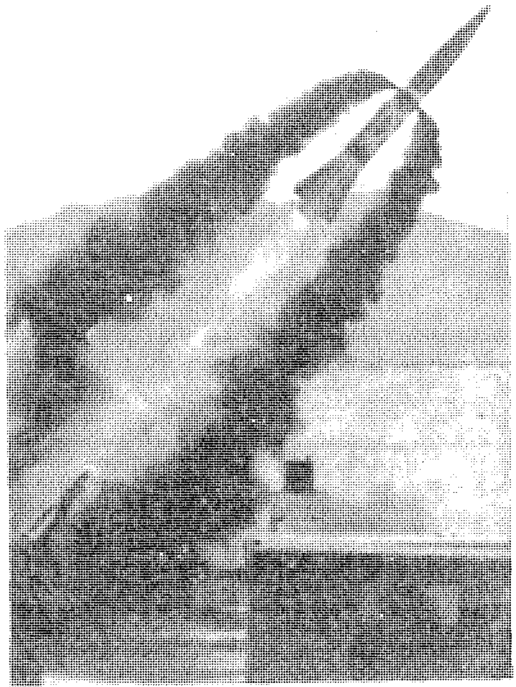
ومن ايسلندا نحصل على دليل آخر عن كارثة عالمية فى اشعار «ايدا» وهى أشعار اسطورية سكندينافية قديمة مجهولة المنشأ، فنقرأ:

الجبال ارتطمت فيما بينها
والسماء انشقت
والشمس اسودت
والأرض غاصت تحت البحر
والنجوم اللامعة تساقطت من السماء
واشتعلت الحرائق
وحمى الصهد
وتصاعدت السنة اللهب
تتحدى السماء نفسها

وفى المكسيك القديمة أحصى شعب «التولتيك» فناء العالم ثلاث مرات، وضمنوا ذلك فى تقويمهم الذى أورثوه للازتك فيما بعدهم، وطبقاً لهذا التقويم القديم هناك أربعة عصور مرت على الأرض:









الأسلحة الذرية ووسائل التدمير الشامل .. هل ستدمر عالمنا الحديث ..؟!

عصر الشمس المائية وفى نهايته دمرت الأرض بالفيضانات.

وعصر الشمس الأرضية وفيه دمر العالم بالزلازل والبراكين.

وعصر الشمس النارية الذى لا زلنا نحيا فيه الآن ومن المقرر أن ينتهى هذا العصر ــ وهو الأخير فى مصير البشرية ــ بالحرائق الهائلة التى تعم العالم كله.. وهو ما يحذر منه حالياً عقلاء العصر الذرى!.

* * *

ويختلف العلماء فيما إذا كانت هذه الأساطير تشير إلى كوارث عامة شاملة أصابت الجنس البشرى بأسره أم إلى كوارث محلية فى أماكن وأزمان مختلفة.

ومن التفسيرات التى قيلت فى تأييد الرأى الأول أن نيزكا ضخماً اقترب من الأرض فى بعض عصور ما قبل التاريخ فتسبب فى هذه الأحداث الكبرى الرهيبة التى علقت فى أذهان الشعوب القديمة بأسرها بما فى ذلك غرق قارات بأكملها تحت مياه المحيط مثل قارة أطلانطس التى لا نعلم حتى الآن علم اليقين ما إذا كانت حقيقة أم أسطورة.

والعلماء المحافظون يرفضون فكرة وجود كارثة عالمية شهدتها البشرية كلها، ويقولون ان أساطير الدمار الشامل فى تراث الشعوب المختلفة ما هى إلا اشارات إلى حوادث أو كوارث محلية حدثت فى أزمنة مختلفة من التاريخ مثل الزلازل والبراكين والفيضانات والأعاصير التى لا نزال نشهدها حتى الآن، وان مثل هذه الكوارث عندما تحدث للأقوام البدائية كانوا يظنونها عالمية المدى تشمل الأرض كلها ويتناقلونها جيلاً بعد جيل حيث تلعب المبالغة دوراً اضافياً فى تضخيمها.

* * *

وأكثر من ذلك هناك ما يوحى بأن الأرض شهدت ما يشبه الانفجارات الذرية فى بعض أحقاب تاريخها القديم..

ففى عام ١٩٤٧ تم اجراء مجس أثرى فى وادى الفرات بجنوب العراق، كان أشبه بمنجم يخترق الطبقات الأرضية عمودياً، وأخذت طبقات الثقافات الأثرية تظهر تباعاً الواحدة تلو الأخرى، ابتداء من مستوى العصر الحالى هبوطاً إلى

مستوى حضارة بابل ثم الكلدانيين ثم سومر حيث شوهدت طبقات من طمى الفيضان تفصل بين مدينة سومرية وأخرى إلى أن وصل الحفر إلى مستوى القرية البدائية حيث كان يعيش فلاحو العصر الحجرى الحديث، وتحتهم ظهرت حضارة الصيادين، وتحت هؤلاء بدا مستوى الرعاة وملتقطى الثمار الذى يقابل الحضارة المجدالينية وساكنى الكهوف في أوربا. وكانت المفاجأة الكبرى أنه عثر فى أسفل هذه الطبقات جميعاً على أرضية من الزجاج المنصهر الذى لا يشبه شيئاً قدر ما يشبه أرضية صحراء نيومكسيكو بعد أن أجريت فيها أولى التجارب الذرية فى مطلع العصر الذرى الحديث.

كما عثر فى صحراء جوبى على نفس الأرضية الزجاجية التى تتخلف عن الانفجار الذرى.

ويقول العالم الروسى دكتور ڤياشسلار زايتسر الأستاذ باكاديمية العلوم بروسيا البيضاء إن وصف العهد القديم لدمار سدوم وعمورة يشبه «وصف انفجار ذرى بلسان شاهد عيان غير متعلم».

ليس معنى ذلك بالضرورة ان الأرض شهدت حروباً نووية قبل عصرنا الحالى، بل قد يرجع السبب ببساطة إلى احتمال ارتطام نيازك ضخمة بسطح الأرض بين الحين والآخر، نيازك أو شهب أضخم من المألوف الذى لا يزال يخترق غلافنا الجوى فى الوقت الحاضر، مثل تلك «القنبلة» السماوية التى أدت إلى ظهور بحيرة كراتر بكلورادو، أو كارثة سيبيريا المسماة «هيروشيما ١٩٠٨» حيث أدى ارتطام نيزك ضخم إلى قتل ١٥٠٠ من حيوان الرنة وحرق الغابات فى منطقة شاسعة شمال غربى بحيرة بايكال بسيبيريا، وترك فجوة كبيرة فى الأرض لا تزال بها آثار نشاط اشعاعى حتى اليوم.

* * *

ولكننا فى المهابهارتا وغيرها من الملاحم الهندية القديمة نقرأ ما يكاد يكون وصفاً تفصيلياً للحروب الذرية بالأسلحة الحديثة بما فى ذلك اشارات تفصيلية عن سفن هوائية قديمة (ڤيمانا) وسهام عدم الوعى (موناناسترا)، وكانت مثل هذه الاشارات تبدو محيرة وغير مفهومة بالنسبة للدارسين الغربيين الأوائل للمهابهارتا فى

القرن التاسع عشر قبل اختراع الطائرات والصواريخ والغازات السامة وسفن الفضاء والأسلحة الذرية، فكانوا يعدونها ضرباً من الخيال المبالغ فيه، أما الآن فإن مثل هذه الاشارات فى «المهابهارتا» وشقيقتها «الرامیانا» وغيرهما تكتسب بعداً جديداً.

فاذا غير مركبات الفضاء أو الأطباق الطائرة تكون مثل هذه الاشارة إلى **«عربات سماوية من طابقين ذات نوافذ كثيرة تلمع باللهب الأحمر وترتفع في السماء بسرعة هائلة فتبدو كالشهب المندفعة»؟**

وماذا غير الحرب الذرية تكون مثل هذه الاشارات:

«كانت قذيفة واحدة مشحونة بكل قوة الكون.. وارتفع عمود متوهج من الدخان واللهب، يلمع كعشرة آلاف شمس تطلع بكل بهائها.. كان سلاحاً لم يعرفه أحد من قبل. أشبه بعاصفة رعدية حديدية. رسول مهول للموت. حول إلى رماد كل جنسى فريشنى واندا كا».

«احترقت الجثث فلم يعد من المستطاع التعرف عليها. تساقط شعر الرءوس والأظافر. تحطمت الأوانى الفخارية بلا سبب ظاهر، وشاب ريش الطيور. وبعد ساعات كان كل الطعام قد تلوث».

«وانطلقت الشهب من قبة السماء.. وفجأة اكتنف الظلام الكثيف الجيش. كل الآفاق لفها الظلام.. وهبت ريح مشؤومة. وبدت الشمس كأنها تسير فى عكس اتجاهها. وبدا الكون وقد شوته الحرارة كما لو كان فى حمى. والأفيال وكل مخلوقات الأرض لسعتها حرارة هذا السلاح فاندفعت تجرى هاربة. حتى المياه نفسها أخذت تغلى. والمخلوقات احترقت. وجنود الأعداء سقطوا كالأشجار المحروقة بألسنة اللهب. والأفيال الضخمة تساقطت على الأرض وهى تطلق صيحات حادة..».

«ولكى يهربوا من هذه النار كان الجنود يلقون بأنفسهم فى الأنهار ليغسلوا أجسادهم وأسلحتهم».

وتصف فقرة أخرى أرض المعركة بعد انتهاء القتال بهذا السلاح الرهيب فتقول:

«أخذت الرياح الجافة القوية والحصباء المتساقطة من السماء تهب من كل جانب .. وبدأت الطيور ترتنح وهى تطير فى دوائر.. والأفق من كل جانب كساه الضباب .. والشهب تساقطت من السماء فوق الأرض كقطع من الجمر الملتهب . وقرص الشمس بدا كأن قد علاه التراب . فظهرت دوائر من البريق الأبيض حول الشمس والقمر» .

«ان التلال والأشجار والأنهار وكل أنواع النبات والحشائش فى هذا الكون وكل ما هو ثابت أو متحرك قد تحول إلى رماد» ! .

* * *

والآن ، إذا رجعت إلى بداية هذا البحث وقرأت تقرير مؤتمر «العالم بعد الحرب الذرية» ألا تشعر انه امتداد طبيعى للمهابهارتا ؟

لا يهمنا فى الواقع أن نثبت ما إذا كان ما ورد فى «المهابهارتا» حرباً ذرية بالمصطلح الحديث ، أم مجرد مبالغة من نسج الخيال ، غير ان هذه الاشارات ـــ مهما كانت طبيعتها وحقيقتها ـــ تبدو بالنسبة لنا نحن أبناء هذا العصر الذرى ذات معنى آخر.. تبدو كما لو كانت رسالة تحذير من أعماق التاريخ عن أهوال الحرب النووية .. أو لكأنها نبوءة فظيعة عن مستقبل البشرية مثل تلك النبوءة التى أطلقها الشاعر الرومانى سنيكا الذى كتب يقول :

سوف يأتى يوم تدفن فيه كل البشرية ..
كل ما أنتجه الصبر الجميل الطويل ..
كل ما بلغ حد الروعة ..
كل ما هو شهير، وما هو جميل ..
العروش العظيمة ، والأمم العظيمة ..
كل ذلك سوف يهوى فى درك واحد ..
ويمحق فى ساعة واحدة ..

فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة

رقم الإيداع : ٦٢١٨ / ١٩٩٢ .
I.S.B.N: 977 — 5082 — 6

عربية للطباعة والنشر
١٠٠٧ شارع السلام ــ أرض اللواء المهندسين
ت: ٣٤١٩٠٩٨

حضارات مفقودة

.... كأنه حلم يغوص بنا فى أعماق الزمن نرى فيه أطيافاً من ماضى البشرية السحيق.. ويحلق بنا إلى حضارات قديمة غابت واندثرت، وإلى دول قامت ثم دالت، وأصبحت وراء الذاكرة، تحجبها غيوم النسيان..

هى حضارات مفقودة لا نكاد نعرف عنها شيئاً..

أطلانطس.. القارة المفقودة.. هل هى حقيقة أم خيال؟.. وما هى علاقتها بما ذكره الكهنة المصريون القدماء لأحد عظماء الإغريق فى القرن السابع قبل الميلاد..؟!

وحضارة «ديلمون».. تلك الحضارة القديمة التى نشأت وازدهرت فى منطقة الخليج العربى وبخاصة فى «البحرين».. وكانت ملء الأسماع مالا يقل عن ألفى عام قبل الميلاد.. وعرفت بنشاطها الملاحى والتجارى الكبير.. والتى تمثل أيضاً حلماً من أحلام البشرية بالفردوس المفقود..!

وذكرى المدينتين الرومانيتين الهالكتين: بومبى وهركولانيوم.. كيف دفنتا تحت رماد بركان فيزوف.. وكيف كشفت معاول الحفر فى العصر الحديث عن المآسى التى حاقت بسكانها.. وكيف حفظ لنا الرماد جثث الهالكين حين كانوا يبحثون عن مفر.. وكيف عرفنا من هؤلاء الموتى أسرار ما حدث من كروب وأهوال..

وفى أمريكا اللاتينية نتعرف على حضارتين من حضاراتها القديمة.. ونعرف قصة كنوز الملك «أتوالبا» الذى غدر به الفاتحون الأسبان.. وقصة حضارة «تياهواناكو» البالغة القدم.. وهل كان هناك اتصال بين قدماء المصريين وتلك الحضارة البعيدة فى الزمان والمكان..؟

هذه الحضارات التى اندثرت وفقدت.. هل تحمل رسالة إلى الإنسان المعاصر؟.. إننا نعيش الآن فى مخاطر العصر الذرى.. وهى مخاطر تهدد بفناء حضارتنا العالمية المعاصرة.. فهل ستصبح هى الأخرى حضارة مفقودة فى يوم من الأيام؟!

لا قدر الله!

«الناشر»

الدار المصرية اللبنانية

طباعة . نشر . توزيع

AL-DAR AL-MASRIAH AL-LUBNANIAH   PRINTING — PUBLISHING — DISTRIBUTION

16 ABDEL KHALEK SARWAT St. P.O.Box 2022-Cairo-Egypt